سلوى بكر

زينب في جنازة الرئيس



زينب في جنازة الرئيس

الرسوم الداخلية
يوسف عبد لكي

الغلاف والخطوط
عماد حليم

الطبعة الأولى - القاهرة

سلوى بكر

زينات في جنازة الرئيس







المرأة على العشب

١ ـ المرأة والولد والكلب

من وسط القبور، حيث يسكن الاحياء فوق الموتى، جاءت المرأة ام الولد صاحب الكلب.

كانت تحمل طبق الصاج الابيض صديء الحواف، مملوءاً بحبات الترمس الصفراء، وترمي ببصرها على اتساع المكان لتختار بقعة معشوشبة تقبلها مستقرا... كأفضل ما يكون الموقع لرأي الشارين، والولد، ابنها ينتعل بقايا حذاء يسع قدما اخرى بجانب كل قدم من قدميه، وراح يتابع سربا من النمل في موكب جنائزي لجعران صغير، امثالهم، كلبهم، فلقد مد رأسه الى اعلى يتشمم الهواء، ويسدد بصره محاولاً على حدأة محلقة في السماء، تحمل بين مخالبها طيرا صغيراً.

جلست المرأة على رقعة مرتفعة، اسفل شجرة كست الارض باوراقها الخريفية المتساقطة، وهمست لحالها بعد ان نفذت حتى عظامها لسعة ريح باردة:

تباشير شتاء.

٢ ـ المخبر القديم مهموم بالشغل

من الناحية الاخرى للطريق، الذي يفصل مدينة الاحياء عن مدينة الموتى، اتى المخبر القديم يتهادى على العشب، واضعا يده في جيبه حينا، بارما شاربه حينا اخر، وهو لا يرفع عينيه عن الارض، بينما ينفخ نفخات طويلة من منخريه في غيظ، كان يفكر محتاراً: من أين يأتي للضابط بخمس قضايا في ثلاثة ايام، «خمس قطع في ثلاثة ايام؟» ـ رددت روحه في غل ـ اثنين دعارة وواحدة تسول والبقية متنوعة؟ وقال لنفسه ايضاً: «أي هرمة انجبت مثل ذلك الوغد؟! أأدخل يدي في الجراب لاخرج منه قضايا؟!! ايريد ان يحصل على نجمة جديدة تلمع على كتفيه باي ثمن؟ وعلى حسابي انا؟». بصق بصقة طويلة داسها بحذائه الغليظ، وراح يعمل فكره متابعا: التسول والمتنوعة، سيحل امرها بإذن الله، فاليوم او غد لا بد وان تنشب خناقة في مكان ما.. ربما بين لاعبي القمار في قهوة الاسيوطي او بين المساطيل في غرزة السمالوطي.. واكد على ذاته بضرورة الذهاب الى هناك، عندما يغطس المساء، وكذلك المرور على خمارة الشوام، فالامر لن يخلو من شيء.

وقال المخبر القديم لنفسه أيضاً: «يعرف ابن اللئيمة ان الدعارة شحت هذه الايام في الدراسة، شح الورق الأخضر، وبصق مرة اخرى لاعنا بنات الدراسة، اللواتي هاجرن للعجوزة والمهندسين، والخواجات، والعرب والشقق المفروشة.

هبت الريح، فرفع ياقة معطفه الخشن حتى لامست اطرافها اذنيه، ودس يده في جيبه باحثا عن الفص، وعندما شعر بخشخشة ورق السلوفان بين اصابعه.. سار.

٣ ـ المخبر القديم يسامر المرأة ام الولد

عندما اقترب من مجلسها على العشب، همس بارتياح من وجد «لقية»، والقى عليها تحية المساء، فبشت في وجهه على حذر.

عندها . . . . كانت الشمس تنسحب راحلة في الافق، تاركة بقية من نورها وحيدا يحيل الكائنات الى اشباح منذرا ببدايات المساء، صرخ النبض بعروق الجالسة على العشب معلنا الخطر. . . كان ذلك واضحا في نبرات صوتها عندما ردت على المخبر تحية المساء. لف المخبر القديم سيجارته في تؤدة، بعد ان مزق الفص باسنانه قطعا صغيرة. وخلطها بتبغ السيجارة، وراح يشعلها ويتابع ببصره سريان اللهب بعوده المشتعل بين اصابعه حتى انطفأ فرماه.

لقد امتص انفاسا طويلة وزعها بين صدره وحلقه، وردها من منخريه في الفراغ الفسيح، وهتف وهو يناولها لها: مساء الخير.

زاد الخوف اكثر في قلب المرأة او الولد، وهي تسحب انفاسا صغيرة، متقطعة من بين شفتيها الرفيعتين، وقالت لحالها: «هل يأتي مثل هذا الرجل بالخير؟». كان الدخان قد اخذ يشحن روحها، ففتحت عينيها عن اخرهما، حتى تقاربت المقل السوداء اكثر مما كانت عليه، وبدت عظمة انفها الكبيرة كجدار فاصل بينهما، اما المخبر القديم فقال لنفسه ايضا: «آه لو لم تكن حولاء. . . صفراء. . . لكنت سددت بها الدعارة . . . ولكن هذه اللبوة. . . لماذا لا تسمن قليلا، لا يمكن ان تصلح بحالتها هذه للدعارة، فلن يقتنع بها ذاك الجالس على مكتبه هناك، فهي لا تسعف ملهوفا ولا تروي عطشانا، ليكن. . . . تسول وامري الى الله».

أما هي فقد تشاغلت بالجري وراء ورقة صفراء، ملقاة على العشب الناحل، جذبها الهواء بعيدا، وعادت لتصنع منها قرطاسا جديدا، ضمته

لقراطيسها الاخرى، وفكرت ثانية وهي تقول لحالها:

ـ آه لو كان لي رجل مثل هذا «الصول». . . يعود بالراتب في طلعة كل شهر، واخلف له من العيال تسعة، يطلع فيهم التاجر والسباك والنيشانجي، وأظل معه مثلما النساء بالبيوت. . . احادث الجارات كل صباح، واطبخ عند الظهر وابيت على فراش مريح في المساء.

وقالت لروحها ايضا. .

ـ ولكني اعرف لماذا يأتي الان ابن اللئيمة هذا. . . لسوف أريه في هذه المرة من اكون.

اما هو ـ المخبر القديم فغمغم متحدثا اليها بالشكوى من بين اضراسه، وراح يسترد منها السيجارة التي قارب نصفها على الانتهاء وهو يقول:

الدنيا انقلب حالها يا اختي هذه الايام، اقول لك انقلب حالها، والعوض على الله، الغلاء في الطالع. . . والمضروب الجالس امام مكتبه في القسم، يظن انني قادر على شق الارض لتخرج بطيخا. وانني استطيع قطف النجمة، التي يريدها على كتفه، من السماء.

وقال ايضا.

ـ ايتصور ذلك المجنون انني استطيع الاقتراب من شحاذي الحسين، والله لا يمكن ان افعل ذلك، طالما هم يدفعون بانتظام وبقدر معقول. . . لست نذلا يا اختي. لا يمكن ان افعل ذلك. انهى كلامه، وبعدها سحب النفس الاخير من السيجارة، التي كانت قد انتهت وانطفأت وراح ينظر اليها عله يستشف ملامح موقف لها، ولكن المقل السود التي تصب دائما بنفس الاتجاه، وضعت بينه وبين ما يدور بداخلها حائلاً سميكاً، فاغتاظ وراح يحك انفه.

اخيرا همست ام الولد في رزانة تاجرة:

ـ اسمع . . . ربما توفق في مرادك. . .

قاطعها بكاء الصغير المغتاظ من مذاق الطين الطري، الذي حشابه

شدقيه ولم يرقه، فاخذ يلفظه مختلطا بلعابه، فأخذت تضحاك حتى مالت على ظهرها، وناولته بضع حبات ترمس قائلة:
ـ يا ابن الإيه!!!
عندئذ... مد المخبر القديم يده الى جيبه، واخرج قطعة النوجه والقى بها للولد حتى يسكت.
وقالت هي والدموع تفر من عينيها من فرط الضحك:
ـ خير ان شاء الله!!
ـ خير يا اختي.
رد المخبر بعد ان افتعل ابتسامة على شفتيه واضاف:
ـ لو جئت هذه المرة سآتيك بالعشاء بنفسي.. وستكونين اخر تمام.. هذه المرة... ليلة واحدة فقط... تخرجين بعدها لعدم ثبوت الادلة، وكما في المرة السابقة سيكون حسابنا... ولكن العشاء... سآتيك به. وفي حجرها القى بنصف الجنيه.
اما هي فكانت قد حسبت حسبتها... فلن يضحك عليها هذه النوبة ابدا، وهي لن تتنازل عن قمطة حمراء «بالترتر» ورغيف لحم من «المسمط» وهذا يكلف جنيها وربع، وخمسون قرشا في يدها لعوادي الزمان... لن تتنازل عن الخمسين في يدها مهما حاول... حتى لو اخذها بالقوة. هكذا كان كلامها مع نفسها. اما معه فكان الكلام:

ـ صلي على النبي يا حضرة الصول، المرة الاولى ظلمتني... اي والله ظلمتني، وانا لم اعد اطيق... والغلاء صار على الجميع، ما ينفع هذه النوبة الا الجنيهان الا ربع... هذا بالعدل والحلال. اتصدق وتؤمن بالله... النوبة الماضية رجعت من التخشيبة وعظمي يكاد يتكسر من نوم البلاط... لن استطع هذه النوبة الا بالجنيهان الا ربع وغلاوة ابني.

سعل المخبر وزام، ووضع ساقا على ساق، ونظر الى حبات الترمس والمرأة والولد والكلب، وتمنى لو اشعل نارا هائلة والقى بهم جميعاً فيها،

وجاء بالضابط ووضعه فوقهم، قطب جبينه وسدد للمرأة نظرات نافذة وقال:

- صرت ماكــرة يا أم محمد. . . . والله صرت ماكــرة، وملأ الـطمـع قلبك. . . . لقد قلت لك سآتيك بالعشاء، . . . والله سآتيك بالعشاء. . . .

اطرقت للارض ومسحت انفها بطرف طرحتها وسكتت قليلا ثم اردفت بهدوء:

- يفتح الله يا حضرة الصول.

ضحك الولد في سعادة وهو يمتطي الكلب، ويشده من ذيله، وراح يصيح على أمه لتراه في هذا الوضع، أما المخبر فقام من مكانه ومد يده الى جيبه، واخرج الجنيه، وامسك بيد المرأة ووضعه فيها واطبق عليها جيدا. وهو يقول:

- غدا نلتقي في المساء.

نظرت المرأة الى ورقة النقد التي بيدها وعندما اطمأنت انها جنيه كامل همست وهي تبتسم:

- لا تنس احضار رغيف من المسمط معك!!





الزمن الجميل

أقاوم النوم، وأقاوم الصحو أيضاً، لا أريد ان أستمر في الحالة الأولى، ولكن ما الذي يشجع على العودة مرة أخرى، لهذا الجنون. وتلك الغرابة المحيطة بي، والتي علي ابتلاعها.. كل يوم.. كل يوم، اجرد أني لست نائمة؟، ثم أن هذا الصباح، هو صباح أول أيام العيد الصغير، وهذا معناه، أني لن اذهب الى عملي في ميدان التحرير، وسأستريح لمدة ثلاثة أيام من مصائب المواصلات، ورائحة أنفاس «الكمساري» المشبعة ببخار البصل والفول، ولن أرى مبنى «الانتكخانة» الوسخ، وخازوق المدينة المسمى بالبرج، وإعلان «شويبس»، وأشياء أخرى، كثيرة ومجنونة. كدت أصفق بيدي وأهتف: «يالها من لذة.. ما أجمل العيد»، لكن همس أمي المختلط بصراخ أبناء أختي، الصغار، كان أسرع من حركتي وأنا أحاول التقلب وفرد ساقيّ الى أبعد حدودهما.

قالت بصوتها المقهور المستجير دوماً:

ـ سليم عندنا وغرضه يشوفك.

ـ آه.. سليم!!

قلت دون شعور بوقع صوتي، وأغمضت عيني المفتوحتين قليلاً، وأنا اتلمس غيبوبة، تساعدني على ألا أفيق.

— ٢ —

في السكة للحلم، لا حقتني، رائحة الشاي بالحليب، مختلطة، بألوان زهور البازلاء الشفيفة، «البمبي» بلون كعبيّ جدتي ام حسن، والبنفسجي، البنفسجي، ثم الاحمر الشفقي، و نوار اللارنج الابيض، الذي كنت أظنه زمان، عصافير مسحورة، ستنتفض وتطير عندما يأتي الربيع وسليم على الدراجة، أجلس أمامه وأرن جرسها المكور الكبير، نمر امام بوابة قصر «البرنس»، ومن خلال فتحات حديدها المضفور يبهرني مهرجان اللون، في الحديقة الممتدة، بعد ان نعبر على بحور البرسيم الخضراء، وحبات الندى ما زالت تتأرجح على اوراقها، أستدير، أمسكه من ذقنه الخشنة، وانظر للمدى واقول له:
ـ سليم ـ هات لي وردة حمراء من عند البرنس
ـ لما نرجع
ـ وحياتك يا سليم
ـ لأ. . . مستعجلين، و«البوستة» لازم نلحقها قبل ما تقفل.

أصر. . . أصرخ. . . افتعل البكاء، حتى تتطاير دموعي، وتسقط على كفيه الممسكتين بالمقود، ويبرز شريط هلامي لزج من فتحتي أنفي. وانا اضرب بقدمي على سيور الدراجة الرفيعة، فيزفر بغيظ، وهو يمسح أنفي بطرف جلبابه، ويقسم، بانه لن يأخذني معه في أي مشوار آخر بعد الآن، مهما توسلت اليه، بينما يتوقف وينزل وينزلني معه، ويدلف الى البوابة والكلاب المخيفة المربوطة في الاشجار العالية، تنبح عليه، وينادي على عم حسين البواب، وعندما يراه، يبتسم ويقول له:
ـ وحياتك يا عم حسين. . صحبة ورد حلوة لنوسة.

تململت، وحركت يدي، متحسسة رقبتي، أصطدم الخاتم ذو الكرة الزجاجية التي تعكس الوان الطيف، والمثبت بخنصري، بتميمة سلسلة صدري الفضية، فتصاعد صوت سحري قديم من قاع الذاكرة، واختلط برنين ملاعق الشاي، اللاهثة في الاقداح الصينية، الذي تناهى الى اذني، من الردهة حيث كانت أمي تجلس مع سليم، ثم علا ايقاع مشترك، ملأ رأسي وروحي كلها، تجسدت تهويماته في الرنين المرح، لجلاجل حصان ابن العمدة النحاسية البراقة، وخلاخيل «نافلة» الفضية، المزينة لعرقوبيها وزنديها، والقرط ذو الخرزة الزرقاء المتدلي من انفها.

وفجأة جاءتني صورة «نافلة» كاملة ... «نافلة» غريمتي ... «نافلة» التي عذبتني، عذاب الروح الاول، «نافلة» التي كنت اغار منها تلك الغيرة، التي كانت تجعل صدري يعلو ويهبط وانفاسي تتلاحق وتختنق، وأرغب في الموت فعلا، «نافلة» الضفائر الحريرية السوداء، والشعر المفروق من الوسط، والمزين بقلائد الخرز الزاهية، وقماطها الاحمر الدامي يطوق الخصر.

ـ سليم ... طالع للسوق وحدك؟

ـ لأ ... تعالي نروح «لنافلة»، النعجة ولدت، ونسأل عن الكبش.

جدك ناوي يفدي في العيد.. تعالي...

يقول، وانا أقول:«نسميه سعيد، نسمي الكبش سعيد... ويكون لونه اسود.. ورأسه أبيض».

ونذهب اليها، حيث تخرج لنا من الخيمة، والغنمات تثغو حولها، بينما الشاي يغلي، على وقدة الخشب، وهي تصبه، وترنو الى سليم، بنظرات ترتعش لها اهدابه، ويتحرك فكه معها، وتلتمع حبات عرق خفيفة تستقر بملتقى عقفة حاجبيه، بينما قلبي يدق في خوف غريب، وعندما تمد يدها

له بكأس الشاي، يتملكني شعور خفي، بأن انتزعه منها وأقدمه له، أو آخذه واجري بعيداً. . . بعيداً عن «نافلة»، ولما تجلس أمامه، تطحن الشعير بين حجري «الرحاية» الثقيلين، وتهمس مبتسمة، كاشفة عن اسنانها الوضاءة قائلة «كيفك يا سليم»، اقترب منه. . وافرد له ذراعي واقبله في كتفه، واقول:

ـ شيلني يا سليم.

وفي الدار، بعد ان نعود، تسألني أمي عن حال «نافلة» . . فأجيبها في حنق.

ـ «نافلة» دمها ثقيل.

ـ ٤ ـ

الأغاني سخيفة، وتفتعل البهجة، لماذا لا يذيعون طيلة اليوم، «مصر التي في خاطري»، او «أمانة عليك أمانة يا مسافر بور سعيد»، و «راديو بلدنا يذيع اخبار»، لماذا يطاردوننا ويتعقبوننا حتى ونحن في الاسرة، ويحاصروننا بتلك السخافات المسماة أغنيات؟، كنت أهمس لنفسي بذلك، وأحاول النهوض ضاربة اللحاف بقدمي، بينما اتمطى في تلذذ، ولكن هذه الانوار الكثيرة، تهاجمني هي ايضاً، تتلألأ في رأسي الثقيل، وعيني المغلقتين. . رائعة، مبهرة، الوان حبات «براغيث الست» السكرية، ورائحة عطرها الثقيل النفاذ، واعلام المملكة باللون الاخضر والنجوم البيضاء الثلاثة، يحتضنها الهلال، تتناثر في فوضى على الحبال المعلقة بالحواري والازقة.

ثريد أمي في «الانجر» المجلي لتوه عند مبيض النحاس، تكلله قطع اللحم المسلوق. . لحم سعيد المذبوح، سعيد الذي أحببته حباً كثيرا، كان ينظر الي كلما قبلته بحزن. . . بكيته بحرقة، عندما طالعته صريعاً يفور دمه على الارض، دمه الذي غمست فيه كفي مراراً ورسمتها على الحوائط

الطينية لغرفة الذبيح، بينما تتشهد أمي، ويتشهد خالي. «أقول وراءهما بعد ذلك مع أخوتي كلهم.. لا حول ولا قوة الا بالله، و... ألف ألف صلاة على النبي، وسليم معه نصف الريال الفضي المحلى بصورة مليكنا المفدى، حتى يشتري «الجاز» للقناديل ولفة الشمع للمقام، وامي تمسح انفى جيداً بالمنديل قبل الذهاب وتقول.

- أوعى البنت ياسليم... إياك تأكل حاجة وسخة، وإياك «السوبيا» والنبي.

وندور سويا في الزحام.. حارات وأزقة.. ورجال ونسوان وعيال، في ملابس جديدة ملونة، وزمامير وطراطير، وترمس وحمص، وبليلة سخنة وأقماع سكر وجلاب، وقبل ان نصل الى المقام، حيث الحصير على الارض والعمة الحريرية الخضراء، تعلو التابوت الضخم، المح بائع السوبيا، وأباريقه الزجاجية الزرقاء، مصطفة على حافة العربة، تبرز من خلالها الاطراف الطويلة المعقوفة، فأدب على الأرض بقدمي، وأشد سليم من طرف جلبابه البني، واقترب منه حتى ألامسه واصرخ:

- سوبيا يا سليم.... أشرب سوبيا ياسليم...

- لأ... أمك وصيتها لأ... ممنوع.

أهدده بأن أجلس على الارض، حتى يتسخ فستاني الجديد، ويتلوث بالتراب، أنتحب بصدق... وأشد الشريط الاحمر المعقود في شعري بغيظ، وأتحسس يده في رجاء، فيذعن ويحن قلبه ويقول:

- طيب... بعد ما نزور المقام.. ونقرأ الفاتحة

- لأ... الأول ياسليم.. عطشانة موت... وحياة نوسة عندك ياسليم.

وبينما ترطب حلقي، قطرات السوبيا المثلجة، التي ارتشفها من العنق الزجاجي للابريق... انظر اليه في امتنان قائلة:

- انا أحبك يا سليم.

أولاد أختي الثلاثة، اشتركوا في اللعبة الوسخة، التي بدأها الشارع بضجيجه، وأعلنوا الحرب على الهدوء، صياح وبمب وزمامير، والمسدسات أيضاً موجودة، بكافة انواعها. . مائية، ومثيرة للدخان، وأمي سعيدة جداً، بهذا الهجوم الهكسوسي، وتعبر عن فرحها بهذا القطيع الطفولي في عبارات من نوع «أسكت يا مضروب، أوعى تضيع فلوسك كلها على المراجيح، اشرب اللبن الأول، وانزل الشارع». قمت للاغتسال، وأمام المجلى اغمضت عيني قليلا، لأتفادى حرقة فقاعات الصابون، وبينما كنت أزيل الماء عن وجهي، دق قلبي، ترى، كيف صار شكل سليم الآن؟، منذ أكثر من عشرين عاماً، لم أره. . آخر مرة كانت ليلة زفافه لنافلة. . . اول فجيعة للقلب أيام الزمن الجميل، كنت يومها في السابعة، وهو. . . لا أدري عمره على وجه التحديد، كان كبيراً. . . وجميلًا جداً في عيني، بل كان أجمل من أمي نفسها، أغلى من روحي «هارون»، بكل فروه الاصفر الجميل، وشواربه اللطيفة. يومها غسلتني أمي وعندما أخذت تجفف جسمي، وتلبسني الملابس النظيفة، وتغني «قلعتك حرز. . . ولبستك اثنين، ستنا فاطمة، لبست الحسن والحسين، حرز للنهار يانوسة، وحرز لليل». قبلتها وسألتها:

ـ أنت عاملة لي فستان جديد ليه؟

ـ فرح سليم الليلة.

قالت، مما جعلني انظر في عينيها بدهشة وأهتف:

ـ انا حتجوز سليم النهارده؟

ضحكت أمي، ضحكة صافية مجلجلة، رنت في أنحاء الحمام، وأخذت تقبلني في سعادة، وأبي يطل برأسه من باب الحمام الموارب متسائلاً في دهشة عن سبب الضحك وعلو الصوت، وقالت:

ـ يارب أعيش واشوفك يانوستي عروسة، سليم ناوي يزف «نافلة» الليلة.

أما المساء، فكان في «المويلحة»، حيث الارض الفضاء الواسعة بطرف البلدة، جمعت كل البيوت، وكل الناس، ورحت انامع أمي وابي وجدي وأخوالي، واصطف العرب صفين، ورقصوا بالخناجر، وغنوا، ورقصت «نافلة»، هزت رأسها مطوحة ضفائرها، وحركت مؤخرتها. كانت رائعة في ضوء القمر، وكان في حلقي سد هائل من الآلام، وغنى الرجال أغنيات سريعة لم أفهمها، وجلجلت زغاريد نساء الفلاحين، مع دقات البدو، وسال دم خراف كثيرة ـ ذكرتني بسعيد ـ تحت أقدام العروسين المخضبة بالحناء، وكنت انظر الى ذلك الاحتفال الغريب، تتقاسمني مشاعر الخوف والفرح، وأحس ان سليماً تغير، وضاع مني، سرقته «نافلة» الغادرة وكانت تتعالى الايقاعات فأبتهج، واحاول تحريك قدميّ، وهز مؤخرتي، كما يفعل الجميع، وتفعل «نافلة»، وحاولت الاقتراب من سليم، لأريه نفسي وانا ارقص، فكان يضحك، ويمسح بيده على شعري وهو مستمر في الرقص، وأمي تبتسم من بعيد أيضاً.

ويمر الكروان منشداً في السماء الصافية... لك... لك... لك... لك، فيتهلل الجميع ويكبرون، أما انا فتمنيت ان يأخذني الكروان بعيداً معه، ولا يعرف سليم طريقي، ويتعذب ويبكي، ويبحث في كل مكان عن نوسة حبيبة قلبه، ونور عينيه.

وعند عودتنا للبيت، بكيت، واحتضنت هارون، ورحت أشكو له سليماً ولكن اللعين انشغل عني بمطاردة فراشة، حومت حول المصباح، وقفز خارجاً وتركني وحيدة لانعس وتدور في رأسي الصور، «نافلة» بثوبها المطرز بالخيوط الحريرية الملونة، ودم الخراف الحار وهو يرسم أشجاراً حمراء موحشة بين اتربة «المويلحة»، وأيادي الرجال والنساء والاولاد المخضبة به، وهي تنطبع على الجدران الطينية، وأمي تدس في يد «نافلة» القرط الذهبي، الذي ابتاعته كهدية لها، وكانت آخر صورة رأيتها في الحقيقة،

قبل ان اغيب في النوم، الجناحان الذهبيان المفتوحان حتى النهاية، والخرزة الزرقاء في صدر الطائر، وهي تكبر وتتضخم حتى ملأت كل عيني، وعندما كبرت أكثر وذهبت الى المدرسة، رأيت الصورة نفسها مرسومة في كتاب التاريخ، وعرفت انه حوريس... المخلص الحبيب حوريس.

— ٦ —

ـ سليم..!؟

قلتها، طويلة. متسائلة.. تحمل الفرح والدهشة، كادت ان تسقط من يده كأس الشاي، فسارع بوضعه على الصينية، واحتواني بين ذراعية، وراح يرتب على ظهري، شعرت بالدفء القديم في رائحة الارض المبللة بحبات المطر ونحن نجري تحتها في الشتاء، عائدين الى البلد، مثلما شعرت برائحة «حنّون» البيض وهو خارج من الفرن، وطقطقة أكواز الذرة. المشوية في الليل.

ـ سليم... كده تنسانا!؟

قلت... بعد هدوء العاصفة. دموع على خد أمي، وارتعاش في اطراف سليم، وحمرة خجل شعرت بها تلفح صفحة وجهي.

ـ كبرت يانوسة... سبحان الله!!

تصعبت أمي وهي تمسح دموعها... وقالت:

ـ الزمن!!.

حكى، وحكت أمي، وأنا اتفرس وجهه، ووجهها.. «سليم روح قلبي ونور عيني». هكذا كنت أقول له واناديه، الآن صار وجها بجلد متراخ على العظم، وشيباً يتلألأ بأضواء الفضة.. تذكرت الف ليلة وليلة «الشيب نذير الموت»، واكتشفت ان امي صارت عجوزاً أيضاً، تحسست وجهي بيدي، رغماً عني، وهو يحكي وأمي ترد، بكلام سمعت بعضه، ولم

أسمع البعض الآخر، تناول الذين عاشوا، والذين ماتوا، ثم تناول اولاده الخمسة، الصبيان والبنات، وحكى عن الكبير الذي ذهب الى البلاد العربية، وعاد بالجوز واللوز، وقمر الدين، وأصبح يمتلك متجراً وسيارة، والصغير، الذي يرتدي السراويل الزرقاء الضيقة، المحبوكة على جسده، وينفش شعره كالعبيد، ولاحظت ان سليم ـ يرتدي في معصمه ساعه كبيرة، ويرتدي جلباباً حريرياً أبيض، ولكني لم المح في عينيه أبداً بريق السعادة القديم، كانت عيناه باهتتين بلا طعم، ردت نظاراته بذلك على أمي عندما قالت:

ـ الحياة صارت بلا طعم ياسليم. . . والناس لم تعد ناس. . . أتذكر يا سليم عندما كنا في شم النسيم، نلون مائة وخمسين بيضة كاملة ونتبارى جميعاً في أكلها. . . لم يكن للاشياء ثمن وقتها. تنهد وأشعل سيجارة، سعل بعدها قليلاً وامن على كلام امي قائلاً:

ـ الناس جاعت في الزمن الملعون هذا. . . وأولاد الحرام لم يتركوا شيئاً لاولاد الحلال، تصوري. . . عيال سعدون الحاوي، صار عندهم الآن عمارات؟. ناس تقول مخدرات، وناس تقول الشقق المفروشة، وشغل الحرام. . . والله أعلم.

إنا أيضاً أشعر بأن الدنيا بلاطعم. . حياتي، وحياة الناس كلها، أقرأ ذلك، وانا أطل على وجهي في المرآة كل صباح، وأراه على وجوه الناس في الشوارع، وعلى محطات «المترو» و «الاتوبيس»، ويقوله زملائي في العمل، بالزفرات والتصعبات والآهات. . ومنذ زمن لم اسمع ضحكة حقيقية، ضحكها أحد من القلب، ورغم ان اليوم عيد، وأمي صنعت الكعك، وغطت المائدة بغطاء جديد، وابتاعت زهوراً وحلوى، لا أشعر ان احداً قد فرح هذا الصباح، طلقات البمب لم يعد لها هذا الدوي الطفولي في اذني، الشوارع قذرة، والوجوه يعلوها الاصفرار، والخضرة صارت شيئاً نادراً، والمواصلات جحيم دائم، والناس لم يعودوا يحب بعضهم

بعضا. . . هكذا قلت لسليم عندما سألني لماذا لم أتزوج حتى الآن، وأمي تضحك بمرارة وتذكرني بحبي لسليم، ونوادري معه، ولأنها خايفت من غضبي بسبب سؤاله، راحت تغير اتجاه الكلام وذكرتنا عندما ذهب سليم الى الحرب، وكنت انا اصنع بنادق من الخشب ومشابك الغسيل مع البنات والاولاد في حارتنا، ونستخدم نوى البلح كبارود، نحارب به الانجليز والفرنسيين واليهود، ونهتف بأعلى ما تمتلك حناجرنا الصغيرة من اصوات: عاشت بورسعيد المجيدة.

وتذكرت انا مع ذكرياتها اشياء اخرى كثيرة. . ايام حبي لسليم، وحبي لعادل ابن الجيران، الذي كان يصر على تقبيل ركبتي المجروحة، عندما اقع ونحن نجري، ويقول لي: «طابت خلاص»، واصدق انا رغم لونها الدامي، ونيران الالم المتصاعدة منها.

وحكى سليم ايضاً عن همومه: حفيده لا يعرف من هو الزعيم سعد، ولم يسمع عن دنشواي، وقال أن السبب هو الكفر، فهو يتعلم في مدارس كفره، وسب اليهود العرايا الذين يتجولون في البلد براحتهم، وقال ان بخلهم جعلهم يسيرون هكذا لأجل توفير متري قماش، ولما سألته عن «نافلة» بكى. وبكت أمي ايضاً بسبب اخي الذي هاجر الى كندا، والذي تخشى ان تموت دون ان تراه، ودمعت عيناي من الهم الذي يثقل صدري، وقلت في نفسي الجميع يبكي بداخله، ولكنه ينتظر اشارة البدء من الاخرين ليطلق دموعه، وتذكرت كيف بكى الناس في جنازة عبد الحليم وام كلثوم، وكادوا ان يخطفوا نعش رشدي اباظة، رغم ان نصفهم لم يقدر له الذهاب الى السينما طوال حياته. تنهدنا جميعاً. . . وقال هو:

ـ سرقنا الوقت.

نهض من مكانه، تشبثت به أمي حتى يظل معنا للغذاء ـ ولكنه كان

مشغـولاً ــ هكذا قال، وكنا مشغولين ايضاً، ولكنا كنا نجاهله . . أجل نجامله، رغم حبنا له الذي يعرفه، مثلما يعرف انه لا يرغب في ان يثقل علينا بطعامه.

ابتسم بطيبة. . . ومر بيده على خدي، وقالت أمي :

ـ عيدها ياسليم. . . الدنيا تلاهي صحيح. . . لكن العشرة لها حق

وعدنا بأن يعود ليرينا احفاده الحلوين. . . لكنه لم يعد أبداً.







نونة الشعنونة

ما عدا ابيها واخوتها، والضابط، وزوجته وابنه، لم يعرف نونة، عند سؤال النيابة، سوى اربعة لا غير، حسنين بائع الخبز، وفتيح البقال، والكواء سالم، ثم الزبال، الذي اكتشف، عند استجوابه انه لا يعرف ملامحها ابداً، لانه ـ على حد قوله ـ كان مشغولاً دوماً بالنظر الى صفيحة الزبالة، لما كانت تناوله اياها، لافراغها في قفته كل صباح.

ولقد تضاربت اقوال الجميع في مسألة ملامحها، فبينما اكد الضابط انها ذات انف افطس، وفكها العلوي بارز الى الامام قليلاً، اجابت زوجته النيابة، متسائلة: وهل كانت لها ملامح؟!، واضافت: «كانت بنت شعنونة جداً، وغريبة الاطوار». اما ابوها، فاكتفى بان قال، وهو يجفف دموعه: «كانت عروسة كالفلة، وبنت ولا كل البنات»، وليثبت للحكومة صدق قوله، اخرج من الجيب الداخلي لجلبابه قرطاً ذهبياً صغيراً، له خرزة زرقاء، كان كامل المهر المقدم من العريس، الذي لم تره ابداً.

حتى نونة نفسها، لم تكن تعرف ملامحها جيداً، اكثر مما تعرف ان لابن الضابط شعراً اسود جميلاً، كشعر امه، وانفاً ضخماً يشابه انف ابيه، ما عدا ان انف الاخير، تتناثر عليه نقاط سوداء صغيرة، لحظتها مراراً، كلما انفعل فزمه وضمه، وهو يهتف بصوت ميت ومخنوق من الضحك،

لصاحبه الذي يلاعبه الشطرنج : «كش ملك».

وعلى أية حال، فالبنت نونة، لم تكن تشغلها مسألة شكلها، الذي كانت تراه منعكساً عى صفحات المرايا كثيراً، سواء في حجرة نوم الضابط وزوجته، او في حجرة الولد، ابنهما، عندما تدخل الحجرتين لتنظيفهما، وترتيبهما، على وجه السرعة، حتى لا يروح الوقت، وتنقضي ساعات المدرسة. لكنها كانت تختطف لحظات سريعة تبحث فيها، من جديد، عن «انسان العين»، الذي لم تصدق أبداً وجوده، مع أن المعلمة أكدت ذلك، مراراً، وتكراراً. وككل مرة، كانت تقف على اطراف اصابع قدميها، وتشرئب بقامتها القصيرة، وتقترب من المرآة قدر مستطاعها، ثم تجذب جفنيها السفليين بأناملها المتورمة، التي لا تخلو من آثار حروق، وجروح بسيطة، فتبرز مقلتاها، دائرتان سوداوان، حائرتان بالدهشة، بينما تجوس بحثاً فيهما، عن ذراعين، أو قدمين، او انف، أو رقبة، أو أية أجزاء انسانية يمكن ان تكون إنسان العين. وعندما تمل وتتعب، وتشعر ان اطراف ساقيها اخذت تؤلمها من جراء هذا الوضع، كانت تهبط على كامل قدميها، وتزم شفتيها بغيظ، مالئة فمها بزفير صدرها، او تخرج لسانها في الهواء، وتحركه حركات دائرية متلاحقة، لتعود بعد ذلك مسرعة فتبدأ بترتيب الاسرة، وتعليق الملابس، ووضع الاشياء في أماكنها المطلوبة.

ولا يمكن إنكار، أن البنت نونة كانت تعتريها رغبة خفية بأن تكون حلوة، وزينة. ليس كزوجة الضابط، التي تحوز من الثياب اشكالاً وألواناً، شيئاً قصيراً، وشيئاً طويلاً، وشيئاً بأكمام، وشيئاً بلا أكمام، ولكن حلوة كالمعلمة، التي كانت تتخيلها في صورة ست الحسن والجمال، كلما تناهى اليها. حيث تقف في المطبخ، وراء الشباك، صوتها الجميل، وهي تطلب من البنات الترديد وراءها «أيطلاظبي وساقا نعامة».

وكانت «أيطلا» تحير نونة جداً فعندما تأخذ في ترديدها مع البنات، وتستمع لوقع صوتها الحاد المنفرد، يرسم «ايطلا ظبي»، تتوقف قليلاً، عن دعك الصحن الذي تغسله في الحوض، او عن تحريك الطبيخ، في وعائه،

على الموقد، ثم تريح ساقها اليمنى على اليسرى قليلاً، وتأخذ في مص ابهامها بتلذذ، وهي تفكر في حقيقة ايطلا هذا، مسائلة نفسها: هل هو برسيم، أم حلاوة حمصية، أم حمار حصاوي؟!

وتتدافع الصور في مخيلتها بحثاً عن الحقيقة، وعندما تعييها الاسئلة، وتكتشف ان سرسوب الماء قد انساب في الحوض كثيراً، او ان الطبيخ غلى بما يكفي، تعاود عملها، بينما يفجر الغيظ والحيرة، قوة هائلة في جسدها، فتأخذ في دعك الصحون وفركها، حتى تبدو لامعة براقة، او تعيد رص الملاعق والشوكات، في مواضعها، على نحو أكثر انتظاماً: بينما تنغم الكلمات: ساقا... سا... قا... ناعاماتن، وهي تنظر من الشباك المسيّج أمامها بأسياخ حديدية، يبدو من خلالها مبنى المدرسة المقابل، والسماء الزرقاء المفتوحة، بظلله، تتصاعد اليها اصوات البنات في صوت متحد قوي، فتشعر بأنها على وشك الجنون، وتصيح بأعلى ما تملك حنجرتها من قوة معهن:

ـ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل.

وكانت تتوق لمعرفة أسرار اشياء أخري كثيرة، تسمع بهامن هذه الدنيا السحرية المخبؤة عنها وراء الشباك، مثلما تتوق لمعرفة حقيقة «ايطلا»، تلك الدنيا التي تغزوها من مدرسة البنات، بين الحين والحين، فتجعلها تحفظ عن ظهر قلب كلاماً غريباً لا تفهمه، جُعلها تتمنى ان تجد من يبرد نار قلبها، ويشرح لها معانيه. والحقيقة انها حاولت معرفة معنى هذا الكلام، فسألت حسنين بائع الخبز عن «أيطلا» فغمز لها بعينه، ورفع حاجبيه بخبث، وحرك ابهامه حركة ذكرتها بنسوان البلد، مما جعلها تشتمه، وتلعن أباه، وسافل سافلين جدوده، لكنها خافت إعادة الكرة مع فتيح البقال بعد ذلك، وقررت سؤال ابن الضابط، لولا ما حدث يوم الجذر التربيعي، الذي جعلها لا تعود الى التفكير بذلك أبداً. حتى انها، عندما فاجأتها السيدة، يوم كانت تقلب في البصل، وتتفرس فيه، بحثاً عن كبرتيت الايدروجين، الذي قالت المعلمة بوجوده فيه، رفضت نونة بشدة إخبارها،

بحقيقة الامر عندما سألتها مستغربة عما تفعله، واكتفت بأن قالت لها أنها تبحث عن شيء غريب في البصل، مما جعل زوجة الضابط تقول، بمناسبة هذا الموقف، ومواقف اخرى عديدة، ان نونة شعنونة، وغريبة الاطوار، وتصرفاتها غير طبيعية، وتحديداً بعد ان رأتها تنط في المطبخ، وترفع ساقيها عالياً، وتمدها للامام، على النحو نفسه، الذي رأت البنات يقمن به، وهن يرتدين السراويل السوداء الطويلة، في فناء المدرسة الواسع، ولقد كانت السيدة تقول ذلك عن نونة، وتضيف كلما جلست بين صديقاتها، خلال الامسيات، في صالونها الذهبي الذي تظن نونة ان عمدة بلدهم نفسه لا يمكن ان يكون قد رأى مثله ان البنت نونة حمارة شغل، وبها قوة تهد جبل، رغم ان عمرها لم يتجاوز ثلاثة عشرة سنة، وانها لن تطردها من البيت أبداً، رغم جنونها، خصوصاً وأن الشغالات شحت جداً هذه الايام وبالكاد يمكن الحصول على واحدة منهن.

ومع أن هذا الرأي لم يرق لنونة أبداً، ومع ان السيدة صفعتها مرة على وجهها، بسبب شتمها للولد ابنها، وقولها له يا مغفل، الا انها لم تكره زوجة الضباط، فهي تعرف ان الصفعة كانت غصباً عنها، مثلما كان الشتم غصباً عن نونة، فالولد كان يجلس في الصالون اياه، مع المدرس، وأمه تجلس قبالتهما تفرقع اللبان، وتحيك الصوف، ونونة كانت داخلة، تحمل صينية الشاي، بينما المدرس يسأل الولد عن الجذر التربيعي للخمسة والعشرين، والخائب ينكش انفه باصبعه وينظر الى امه ببلاهة، ولا يرد، ولما كانت نونة قد سمعت الكثير من المعلمة عن الجذر التربيعي، فلم تتمالك نفسها، عندما أجاب الولد، فجأة ببرود: ٤، وصاحت منفعلة، كما تصيح المعلمة: «٥ يا مغفل»، مما جعل الصينية توشك على السقوط من يديها، والمدرس يقهقه مبهوتاً، والولد يجري نحوها محاولاً ضربها، الا ان امه كانت اسبق الى ذلك، حيث همت من مكانها، خوفاً على أكواب الكريستال من الكسر، وصفعت نونة، الصفعة الوحيدة، التي تلقتها منها خلال سنوات إقامتها الثلاث في هذا البيت، ومع ان السيدة لم تكذب، حين قالت للمدرس ان نونة لا بد وان تكون سمعت ذلك من مدرسة

البنات، لأن «الشباك في الشباك»، فقد تعلمت نونة الا تتحدث في هذه الامور مع احد ممن في البيت ابداً، حتى لا تفكر السيدة في طردها، وهي التي ترغب في البقاء، الى الابد، حيث المدرسة والبنات، العالم الجميل الذي تسمع اصواته كل يوم، من شباك المطبخ، ولا تراه ابدا، رغم اتقاد النار الحامية المشتعلة في صدرها، ليل نهار، شوقاً الى امها واخوتها، ورغبة في الجري مع العيال، في الغيطان، وتنسم رائحة الخضرة، والصباح الندي، وشوفة شمس الشموسة، عندما تطلع كل صباح، وسماع نداء أمها لها، عندما تحرد وتغضب ويتغير خاطرها: «نعيمة» يانعومة «تعالي كلي ياكبدي... يانور عين أمك».

كانت تحب اسمها الحقيقي «نعيمة»، مثلما تحب تدليلها بنعومة، ولا تجد ظرفاً في اسم نونة، الذي اطلقته عليها السيدة، وناداها به الجميع، منذ وصولها من البلد، الى هذا البيت، وحتى خروجها منه الى الابد، ذلك اليوم الذي لم يعرف احد بعده اي شيء عن نونة، وكانت حياتها قبله تسير على وتيرتها المعتادة، فلقد صحت كعادتها مبكرة، وابتاعت الخبز، ثم جهزت الفطور للضابط وزوجته وابنه، وناولت الصفيحة للزبال، ودخلت المطبخ، بعد ان ذهبوا جميعاً، الا ان كل شيء في حياتها بدأ يتغير في حوالي الرابعة، لما دق الباب وكان القادم ابو سريع، أباها، الذي فجر قنبلته، بعد السلام والمرحبا، والغذاء والشاي، وطمأنتها على أحوال امها واخوتها واحداً واحداً، والاخذ والعطاء في الكلام، اذ قال، وهو يتفرس صدرها، وجسدها، ويبتسم مسروراً، حتى برزت اسنانه السوداء، انه سيأخذها معه هذه المرة، لانها ستتزوج، وأراها القرط الذهبي: الذي ابتاعه لها العريس، العائد من بلاد الرسول، يحمل من الفلوس ما يكفي لفرش حجرة بحالها، في بيت امه، ويزيد ايضاً. ساعتها طب قلب نونة عند كعبيها، واوشكت على البكاء، فطلب منها أبو سريع، وهو يبتسم، لما رأى الدم يهرب من وجهها، ويصبح لونها كلون اللفتة البيضاء، ألا تخاف، فهذا امر يحدث لكل البنات، ولا ضرر منه، وطلب منها تحضير حالها،

لانهما سيسيران معاً عند، الصباح، ثم قرر أن يفرحها ايضاً بالخبر الذي أفرحه، فأخبرها ان السيدة سوف تمنحها أجر شهر اضافي كحلوان، وقطعتي قماش لم يدخل فيهما مقص من قبل، وأن اختها الصغرى ستحل محلها في الخدمة بمشيئة الكريم.

« . . وكل شيء كان طبيعياً في هذه الليلة»، هكذا قالت زوجة الضابط للنيابة، ووافقها على ذلك زوجها وابنها، وحتى ابو سريع نفسه، فلقد أعدت نونة العشاء، وغسلت الصحون، وقدمت الشاي للولد، وهو يذاكر في حجرته «ولم يكن بها أي شيء يثير الشكوك»، هكذا اضافت، وهو ما حدث بالفعل، مثلما حدث ان نونة باتت الليلة على فراشها، في المطبخ، دون ان يغفل لها جفن، تحدق بالسقف المظلم، وتنظر حينا صوب الشباك، حيث يقف مبنى المدرسة شامخاً خلفه، وتبدو فوقه قطعة سماوية صافية، ترقص فيها النجمات. كانت روحها تدق الهم وتطحنه، لانها لا تريد العودة للبلد مرة اخرى، ولا ترغب العيش وسط الوساخة والبراغيث والناموس، مثلما لا ترغب في الزواج، لتصبح ـ كأخواتها ـ مزروعة في الغلب. وانسابت الدموع، ليلتها، من عينيها بحوراً، وهي ساهرة حتى طلع الفجر، ورأت بعينيها لون السماء الابيض، وحديد الشباك الاسود، لكنها عندما نادتها السيدة، لتنهض، وتذهب الى السوق لابتياع الخبز، كان النعاس قد غلبها، وراحت تحلم بالمدرسة والبنات، وابن الضابط، الذي كانت تصفعه ـ في حلمها ـ صفعات قوية، لانه لا يعرف الجذر التربيعي للخمسة والعشرين، كما رأت ايطلا، وكان شيئاً جميلاً جداً، لم تعرف اكان انسياً أم جنياً، فقد بدا ذا لون ابيض، بياض ندف القطن، له جناحان بألوان قوس قزح الجميلة، تعلقت بهما نونة، فطار أيطلا بها بعيدا، بعيدا، عن المطبخ، والبلد، والناس، حتى صارت في السماء، ورأت النجمات الذهبيات عن قرب، بل وكادت ان تلامسها.

وذكر الذين رأوا نونة في صباح ذلك اليوم، ان وجهها كان يحمل تعبيراً

غريباً، هكذا قال الضابط وزوجته، اللذان اكدا ان نظراتها لم تكن طبيعية أبداً، عندما ناولته علبة السجائر، وهو يهم بالخروج، وعند ما طلبت منها السيدة ان تعدل منديل رأسها قبل ان تذهب لابتياع الخبز

كانت زوجة الضابط تقول، وهي تضحك كثيراً، لصاحباتها، بعد ان تحكي لهم قصة نونة، وهي جالسة معهن في الصالون الكبير: «الم اقل لكن.. كانت مجنونة، وشعنونة جداً... لكن اختها... لا اقدر ان احدد امرها بعد»...





الخصبة والجدبة

أوشكت الأم أن تحرك شفتيها بالسؤال. . غير ان لمعان الدموع في عيني ابنتها أجابها بالنفي قبل ان تفعل، فجاوبتها بدمعات أكثر منها انداحت على بشرة خديها المخملية الرائقة وهي تقول:

إذن. . . لا فائدة يا نظري. . . لم تأت السحلية أيضاً بالرجاء!!

قفزت الابنة من السرير النحاسي بعمدانه الطويلة الأربعة والمزدانة بستائر قصيرة من الدانتيلا الوردية الرقيقة والمنقوشة بصور أطفال صغار لهم أجنحة الملائكة. . . ومالت لتخرج من تحته وعاءاً قديماً مملوءاً بقطع المحوجة الصفراء وناولت أمها بعضا منها وهي تواسيها مهدئة.

ـ وحياة النبي لا تبكي. . . هذا نصيب. . . . مسحت الأم انفها بطرف جلبابها الاسود الطويل وراحت تقضم قضمة كبيرة من قطعة الحلوى وقالت:

ـ ناقصة عسل.

لم ترد الابنة وهي تقول لنفسها: وهل تصنع الحياة شيئا جيدا، وآثرت تغيير الموضوع حتى لا تعطي امها الفرصة للكلام عن أهل زوجها. . .

وراحت تحكي لامها عن الجاموسة التي سيبتاعها زوجها. . . وأنها ما زالت عندهم في الدار منذ ثلاثة أيام. . ولا شيء فيها معيب. . . ولكنهم سينتظرون اسبوعاً كاملا فربما تكون مريضة. . . غير أن الام المنكودة السارحة سألتها فجأة:

ـ أخشى ألا يكون زوجك الخائب قد فعلها كما يجب. . . ولم يطلقها في الوقت المناسب. تنهدت الابنة بضيق وحسرة، وراحت تقص عليها كيف انه فاجأها وهي عارية في احضانه بالسحلية التي اندفعت من عود الغاب الطويل حتى لامست رقبتها، وكيف انها ارتعبت في تلك اللحظة حتى فقدت القدرة على النطق أو الصراخ . . . وحكت لها عنه عندما راح يهدئها ويقرأ لها الصمدية ويكثر الذكر حتى ثابت الى رشدها وردت فيها الحياة. . . ورغم ذلك. . . فعندما صار القمر بدراً شعرت بثقل جسمها وآلام ظهرها وتدفق الدم منها كالمعتاد. . . بينما كانت تحش البرسيم للبهيمة في الغيط، مصمصت شفتيها. . . وتصعبت وهي تؤمن على حكايتها بأن ذلك أمر الله ولو شاء لأعطاها ما حرمها منه.

سهمت الأم وهي تتأمل ابنتها التي اكتسى وجهها في تلك اللحظة بغلالة من الحزن العميق، وراحت تفكر في حالها، لسوف يطلقها زوجها في يوم ما لا محالة، لن يتزوج عليها بالطبع، فلا أبيض لديه ولا أسود يمكنه من اعالة امرأتين في آن واحد. . . والرجال كالماء في الغربال. . . وليس للزمن أمان؟!!

قطعت عليها الابنة غيابها مع نفسها بضحكة مفتعلة وهي تقول:

ـ زوجي رفض ان يعطي اخته الكلوب القديم. . ستطق من الغيظ.

لم يكن هناك شيء بقادر على أن يخرج الام من تفكيرها واحساسها بالمصيبة التي تعيشها ابنتها فلم تبادلها الكلام وقالت في اصرار هادىء متجاهلة ما قالته الابنة:

ـ غدا . . . لسوف نذهب الى الحجر المرصود . . . لم يبق لنا الا ذلك .

انقبضت الابنة واعتراها الضيق . . . فلقد جربت كل الامور واتبعت عشرات الطرق ولكن بلا فائدة . . . لقد زارت الاطباء والسحرة والمشايخ وسألت العجائز وكادت تموت من الرعب يوم السحلية . . .

ولكن ما نفع شيء في نزول الدم خمسة أيام كل شهر . . . وما رددت جدران الدار صراخ طفل على مدى عام . . . لقد زهقت وليكن ما يكون . . . لو راح منها الرجل فلن تندم فما أخذت منه غير الشقاء بالنهار وقلة الراحة طوال الليل يوقظها وقتما شاء من احلاها نومة ليضاجعها ويرضي مزاجه حتى لتشعر بان عظامها ستتفتت في يوم ما . . . ليته يذهب بعيداً عنها بسرعة لتستريح او ليت الله يتذكره لتصبح هي سيدة الدار وسيدة نفسها . . . أو ليتها كانت رجلا من البداية حتى لا تحمل كل تلك الهموم . .

تابعت أمها قولها مقاطعة ما يدور في داخل الابنة التي راحت تنظر بعيداً عبر النافذة الى حمامات محلقة في زرقة السماء الصافية .

ـ غداً . . . ان شاء الله بعد اذان الفجر سنذهب سوياً . . . لا تخبري احدا بذلك ولا حتى زوجك . . . واياك ان تحادثي احدا طوال الطريق وسآتي انا بالعيش والملح .

ـ ٢ ـ

في فجر اليوم التالي . . . بعدما استحمت الابنة متطهرة من فعل زوجها ليلة الامس تسللت بعدما خرج للصلاة وأسرعت الخطو لتلقي أمها المنتظرة عند نهاية الحقول . . . ودون ان تنفرج شفتاها المطبقتان بأدنى همسة ، سارتا متجاورتين . . . ولا صوت إلا وقع الخطى المختلط بأناشيد الصباح الجماعية التي تنشدها العصافير والديكة وجنادب الليل الساهرة . . . وفكرت الام كيف انها طرحت عشرة بطون اختار الموت منها أربعة . . .

وازدهر بالحياة ذكران وأربع اناث . . ينجبون جميعا بمجرد اللمس كالفراشات . . . ولكن تلك الصغيرة المسكينة لا تفعل . . . زوجها يزعم إنه قادر على انجاب عشيرة بأكملها وأنه سليم معافى رغم انه لم يذهب الى شيخ او طبيب . . ربما كان معيبا، ستحاول اجباره على ان يذهب الى الطبيب . . . ستلمح له بان ابنتها على ما يرام . . . وبرأها الاطباء . . . سيجن ويغضب ولكنه سيضطر في النهاية . . . ولم لا؟

كانت المرأتان قد اجتازتا الحقول . . . وصارتا عند طرف القرية البعيد على مشارف الجبانة . . . توردت وجنتا الأم بفعل المسير وهواء الفجر الريفي . . . بينما راحت ابنتها متلاحقة الانفاس وهي تسرع الخطى لتواكب حركة أمها النشيطة كادت ان تنطق طالبة منها الابطاء قليلا ريثما تستريح ولكنها تذكرت ضرورة الصمت طوال الطريق وضرورة عودتها قبل عودة زوجها من صلاته بالجامع . . . ضغطت على اسنانها وتجلدت وواصلت المسير وتأملت امها الكبيرة الجدة وهي تسير كبطة سمينة بضة ودعت لها بطول العمر . . . فلولاها ما عرفت كيف تسير الحياة ولما استطاعت ان تواجه اهل زوجها طوال تلك المدة . . . كان من الممكن ان يأكلوها حية . . او يمزقوها ويلقوا بها للكلاب . . . يالها من أم . . . حنانها لا يعوض . . . أجل لا يعوض.

ـ ٣ ـ

الحجر المرصود . . صلد . بني . . صغير في حجم دجاجة . . . يبرز من الارض وحيداً وسط الجبانة . . . ولا احد يدري من اين تنبت الحشائش الغريبة حوله، ومن اين تستقى ماء حياتها . . . وعلى سطحه حفرت بقايا نقوش غريبة لطيور وحيوانات ومفاتيح كمفتاح دوار العمدة الحديدي الكبير . . بعضهم يزعم انه كبير ضخم ممتد حتى جوف الارض . . . وما أتته عاقر بعيشها وملحها الا عادت الى مكانها خصبة ولودا . . . كان

صمت الجبانة المخيف والشواهد الكثيرة المتراصة المتقاربة كبيوت القرية الطينية قد أحكم الشعور بالوحشة في صدر الابنة وزاد من شعورها بالانقباض فخافت وودت ان تعدو راجعة غير ان امها كانت قد سبقتها ووقفت أمام الحجر حتى لامسته فصاحت الابنة فجأة من خلفها حتى شهقت الأم رعبا:

ـ نسينا العيش والملح.

ضربت الام صدرها آسفة على النسيان ووقفت مذهولة غير ان الابنة لم تمهلها وأردفت.

ـ علينا ان نعود بسرعة قبل ان يرجع زوجي الى الدار.

بدأت رحلة العودة مرة اخرى... واسرعت الابنة الخطى الى الدار وشعرت هذه المرة انها خفيفة خفة من تحرر من حمل ثقيل... وفكرت في ضرورة ان تعزل الدجاجة السوداء وحدها في الدار وتظل ترقبها حتى تبيض ولا تتمكن من التهام بيضتها... ولمعت عيناها بالغضب واقسمت انها ستذبحها لو عادت وفعلتها مرة اخرى تلك اللئيمة، بينما اكدت الام في حسرة واصرار قائلة:

ـ قسمتنا... ولكن سنذهب ان شاء الله بعد حيضك القادم... الحجر لا يخيب رجاء.

ـ ٤ ـ

بعد شهرين... القت الأم بنفسها على سرير ابنتها متوجعة... بينما جلست الابنة أمامها وقد اتسعت عيناها بالدهشة وكادت انفاسها تتوقف من فرط الانفعال والمفاجأة وراحت تضرب صدرها وصوتها يخرج مبحوحا:

ـ ياحوستي... في هذه السن وحبلى... كانت تلتهمها مشاعر متضاربة من الغيرة والحسد والغضب والسرور، بينما أمها لا تقوى على

الكلام من الخجل والشعور بالعار. . . وفكرت ماذا تقول لاهل القرية وهي الجدة الوقور ذات الشعر الابيض كندف القطن. . . والتي ما من مشورة تطلب إلا وافتتت فيها. . . وما من خلاف نشب الا وفضته.

انداحت على خدها دمعه فبدت كما لو كانت آثمة في سن العشرين. . . واستها الابنة في حنان وهمست لها وهي تقبلها:

- مبروك. .

تمتمت الأم وهي تتحسس بطنها في حركة رغما عنها:

- عقبالك ان شاء الله.



لوكيميا

كانت اغرب فتاة في فرقتنا، بل ربما في الصف الثاني على الاطلاق. من حيث الشكـل ، قصيرة، نحيلة، ببشرة لفتية بيضاء، تبدو معها كما لو كانت منتشلة لتـوها من الغرق، او كأنها على وشك الاحتضار أما أنفها الـطويل المعقـوف فيشطر وجهها شطرين ممصوصين، تبرز منهما خرزتان خضراوان، كانتا عينيها.

كانت تمتلك قدرة خاصة على الصمت وعدم الحركة والابتعاد عنا، بل وحتى عن أقـرب جارة لها تشاطرها المقعد المدرسي نفسه، ولولا مهارتها الشديدة في مادة الكيمياء، لظننا أنها بلهاء، غبية، فقد كانت هي الوحيدة بيننـا جميعاً القادرة على خلط الخارصين بحمض الادرو كلوريك بنسب صحيحة، ودون الوقوع في أخطاء.

كانت تستـطيع تلاوة تلك التعاويذ السحرية الغامضة من نوع «يد ٢، كب ٤، لو ٥» بمنتهى البســاطـة والسهـولـة، وكـانت تحفظ الجـدول الدوري كاملاً، وتميز بين العناصر والفلزات بدقة.. الى آخر ما حاولوا تعليمه لنا من ذلك العلم اللعين الذي سرعان ما يتبخر من الرأس، بعد قضاء ساعات طويلة في حفظه واستذكاره.

لذلك، ولشكلها، ولصفاتها البشرية، ولأسباب أخرى، أطلقنا عليها اسم «لوكيميا» وهو اسم سرعان ما انتشر في صفنا بأجمعه، وفي الصفوف المجاورة لنا، ومع مرور الأيام تسرب للفرقة الأولى والفرقة الثالثة، حتى جنايني المدرسة العجوز، الذي كان يعطينا وردات بين الحين والآخر، بينما يغمز بعينيه، ناداها في احدى المرات بلوكيميا.

كانت كراهيتنا للوكيميا ليس مبعثها الغموض الذي يلفها، وقدرتها الفائقة على الصمت، وتفوقها الشديد في الكيمياء، بالاضافة الى بعض التصرفات الغريبة الأخرى، التي كانت تبدر منها ونلاحظها، أحياناً، كحماسها الشديد، وصوتها الجهوري وهي تنشد نشيد الصباح المدرسي، ولكن كانت هناك اسباب أخرى، كنا ندرك بعضها، ولاندرك بعضها الآخر، وما كنا ندركه هو عدم مشاركة لوكيميا لنا في أشياء كثيرة نحب ممارستها. مثلاً، لم تكن تشاركنا قراءة «البطة السوداء»، أو «الأرنب الشرس»، عندما نتجمع في ركن بعيد في فناء المدرسة، ونأخذ في مطالعتها بتلهف، مهما كانت الظروف، حتى لحظات الحر الخانقة في الصيف، أو في أيام الصقيع الشتوي، ولم تكن لوكيميا تشاركنا الأحاديث عن تلاميذ المدرسة الثانوية المجاورة لنا، كما كنا نشك في أنها تحلم مثلنا قبل أن تنام بفصول ساخنة من «البطة السوداء»، أو «الأرنب الشرس»، وما ورد ذكره بدقة من فنون وأسرار الغرام على صفحات تلك الكتب الأخرى المقدسة ـ بالنسبة لنا بالطبع ـ التي كنا نقتنيها في حرص ونتعلم منها مالا نعلمه.

وطالما ولجنا هذا الجانب، فسوف أحدثكم عنه بوضوح أكثر، ففي الحقيقة، كانت لوكيميا تثير سخريتنا بصدرها الممسوح، وعودها الجاف، وحاجبيها الخشنين اللذين يلتقيان عند بداية انفها، وكنا نستغرب كونها لاتحرص مثلنا على نتف الشعر الذي يغطي ساقيها وذراعيها بعجينة السكر والليمون، بل والأغرب انها ردت بابتسامة ساخرة على واحدة منا، أشارت عليها باستعمال موسى الحلاقة سراً، اذا ما كانت أمها تمنعها من إزالته،

وقالت:

ـ لا دخل لأمي في هذا الموضوع!.

أما جوهر الأمر، الذي لم تستطع أي منا أن تفاتح به أخرى، والذي كان مبعث كراهيتنا الأساسي للوكيميا، فهو قدرتها على فعل ما لم نستطع فعله ابداً، فلقد كانت تمتلك قوة جهنمية تستطيع بها ان تثبت نظرات عينيها، ولفترات طويلة، على وجه مدرس الرسم، وفي عينيه، وهي تناقشه في أمور لانفهمها، تتعلق بالألوان والنور والظل، مدرس الرسم معبودنا جميعاً نحن بنات الصف الثاني، وهو الذي كانت نظرة واحدة الى عينيه كفيلة بأن تبعث في اجسادنا رعشات كهربائية سريعة، تجعلنا لا نعاود مثلها الا بصعوبة.

واستطيع الآن أن اتذكر، وبحلقي غصة مريرة، ذلك اليوم التاريخي، الـذي قلب الأمـور رأسـاً على عقب في مدرستنـا، بل وغطى على كل الأحداث الأخرى الكبيرة، التي حدثت آنذاك، ومنها خطوبة «ابلة فضة» مدرسـة مادة الفلسفـة، التي كنا قد فقدنا الامل في زواجها بعد بلوغها الاربعين، وفشل صبغة الحنة في مواجهة الزحف الابيض على خصلات شعرها المجعد، وأيضاً مثل محاولة انتحار طالبة بالصف الثاني حزناً على وفاة مطرب شهير بعد صراع طويل مع المرض.

ففي هذا اليوم التـاريخي، يوم «لوكيميا» أعلنت ناظرة المدرسة، من خلال أوامـرها الصباحية، طرد لوكيميا من المدرسة لمدة خمسة عشر يوماً متصلة، بسبب سوء وانحراف سلوكها، وزعمت ان هنالك واقعة محددة تتعلق بهذا الامر، تحتفظ لنفسها بتفاصيلها الخاصة حفاظاً على بنات المدرسة.

والواقعة، التي عرفناها بعد أيام طويلة من التحري والتقصي، والتي سرعـان ما انـدلعت تفـاصيلها بين الصفوف كلها. . . تتلخص في ان

لوكيميا ضبطت في شقة باحدى النواحي القاهرية، وذلك بعد تكرار ترددها على ذلك المكان، وبعد ان شاهدها الجيران وبعض أبناء الحي، وبلّغوا البوليس الذي بلّغ بدوره اهلها والمدرسة.

ولمدة خمسة عشر يوماً، وهي فترة غياب لوكيميا عنا، تضاربت الاقوال حول الموضوع، فالبعض أشرن الى ان عدد من ضبطت معهم لوكيميا كانوا ثلاثة رجال، فيهم طبيب المستشفى الجامعي الذي كان يحاضر ايضاً للطلبة، والبعض الآخر من البنات قلن بأنه كان رجلاً واحداً فقط تجاوز الخمسين من العمر، اما الرواية التي قهرتنا وأشعرتنا بالمرارة المريرة فقد جاءت على لسان تلميذة في الصف الاول، قالت ان العدد الحقيقي خمسة، وذلك بعد ان اقسمت ثلاثاً، بل قالت لتؤكد روايتها ان احد هؤلاء الشبان يمت لها بصلة قرابة، فهو أخ غير شقيق لزوج بنت عمة أمها!!.

خمسة يالوكيميا مرة واحدة!! خمسة أيتها الجبارة المفترية!!

هذا ما كنا نردده جميعاً في مرارة، فنجوى فوزي اجمل بنات المدرسة بكل ما تملكه من قوام فارع ووجه جميل، بالكاد حصلت طالب بوليس، ولوكيميا بشعرها الاجعد المنكوش وقامتها القصيرة ـ حتى ساقيها لم تخلو من عضلات تتكور كعضلات لاعبي كرة القدم... لوكيميا التي بلا صدر أو ارداف تحقق خمسة بضربة واحدة؟؟.

وبالطبع رحنا نتنافس ونخوض في أمور اكثر تفصيلية عن الموضوع الذي ظل محوراً لاحاديثنا طوال خمسة عشر يوماً، وخاصة بالنسبة لنا في الصف الثاني، حيث كنا اقرب وأكثر معايشة للوكيميا، فقد استطعنا وضع النقاط على الحروف وتوضيح امور دقيقة من خلال استعانتنا بمراجع عميقة «كالبطة السوداء» و «الارنب الشرس» أما الامر الوحيد الذي ثبت بعد كل ذلك، فهو ان نظرتنا للوكيميا وفكرتنا عنها اخذت في التغير على نحو جذري، وراح احترامنا لها يتصاعد، وتقديرنا لقدراتها يزيد، فلقد اكتشفنا

فجأة قدرتها الفريدة، وهذا ما دفع بنا في النهاية للاتفاق على ضرورة فتح صفحة جديدة معها، وضرورة تدعيم العلاقات بها منذ اول لحظة تعود فيها الى المدرسة عندما تنتهي عقوبة فصلها منها.

لقد أحدثت واقعة لوكيميا التاريخية تغيرات جوهرية في عديد من بنات المدرسة، تبدت في جملة مظاهر منها ان البعض اخذن في نكثر شعورهن على طريقة لوكيميا، وتركها باهمال، حتى ذوات الشعر الناعم المسترسل لم يعد من الاساليب لتجعيد خصلهن المنسابة على الجبين، والبعض الآخر تركن شعيرات سيقانهن واذرعهن تنمو على راحتها وتعمدن عدم نتفها او حلقها.

وعلى امتداد الصفوف الثلاثة في المدرسة انتشرت ظاهرة حواجب لوكيميا الكثيفة المعقوفة ذات «العبسة» ومن كانت حواجبها خفيفة ناعمة راحت تستخدم قلم الفحم لتبدو بحواجب «لوكيمية».

اما طلاب المدرسة الثانوية المجاورة لنا بالحي، فقد قررنا قطع العلاقات معهم، لم تعد هناك مواعيد او لقاءات او خطابات متبادلة بيننا وبينهم عن طريق محمد الاسمر بائع الفول السوداني الذي يقف بعربته على ناصية شارع المدرسة.

رحنا ننشد جميعاً مستوى لوكيميا في العلاقات مع الجنس الاخر، طبيب، مهندس، طالب جامعي في الحد الادنى.

عودة لوكيميا!

عندما عادت لنا في صباح احد الايام، لا استطيع ان اصف بأي مشاعر قابلناها، فقط، اتذكر ان طابور الصباح اليومي تأخر عن موعده

بسبب الانشغال بلوكيميا، ونسينا تحية العلم، رغم حضورنا جميعاً مبكرات، ووجدت المشرفة على النظام يومها صعوبة في ترتيب الطوابير وضبط النظام، فلقد تدافعنا جميعا الى لوكيميا، البعض يريد التحدث معها بسرعة للحصول على معلومات جديدة، الاخريات يردن فقط رؤيتها واعادة اكتشاف تركيبتها الجسمانية الخارقة، قليلات هن اللواتي استطعن لمسها اوَ مصافحتها، او الهمس لها بالتحية، واظن ان فتيات في الصف الاول همن بها في ذلك الوقت مثلما همنا بها بعد فترة لاسباب اخرى كما انهن حدثنني وقتها عن ارقهن الليلي بسببها مثلما كان يؤرقهن مدرس الرسم، وأكدن ان ذلك حدث بعد ان تلاقت عيونهن بعيني لوكيميا.

عينا لوكيميا في ذلك اليوم، يوم عودتها، كانتا مدهشتين، مدهشتين جداً، لانهما كانتا تحملان النظرات القديمة الهادئة نفسها، التي تستطيع ان تثبتها على وجه مدرس الرسم، ومدرسة اللغة العربية المحجبة، والتي زادت كراهيتها للوكيميا اضعاف ما كانت عليه من قبل، والتي لم نكن في ذلك الوقت ندرك اسبابها على وجه الدقة.

وعلى وجه الدقة بدأنا نعرف لوكيميا اكثر فأكثر، امضينا معها بقية النصف الباقي من السنة الثانية، وكل السنة الثالثة، حتى في الاجازة الشتوية الصغرى، والاجازة الصيفية الكبرى لم ننقطع عنها، ولم تنقطع عنا، كنا نزورها في بيتها، او نلتقي معها في الشارع، تحدثنا، واكتشفنا من خلالها اشياء كثيرة، كنا نجهلها، عن الحياة، والرجال، والنساء، والاشياء، حتى عن انفسنا ايضا.

واكتشفنا انها جميلة حقا، وتمتلك روحاً رائعة، لقد عرفنا من خلالها معان أخرى عديدة للجمال، اكتشفناها في انفسنا، وفي الناس الذين كنا نعرفهم، او الذين كانت تعرفنا عليهم لوكيميا.

وكنا نمضي ساعات طويلة معها، نتذكر ذكريات كثيرة عنها وعنا،

وتفاصيل صغيرة عن حياتها بيننا في المدرسة، لم نكن نلحظها او ندركها، وادركنا بعد ذلك سر كراهيتها لمدرسة اللغة العربية المحجبة، وسخرية لوكيميا الدائمة منها عندما تقول «الناس بعضهم فوق بعض «بقات» . كما اكتشفنا موضع القوة فيها، والذي مكنها من الثبات في مواجهة السحر الرجولي الشديد لمدرس الرسم.

ولقد عرفت لوكيميا ايضا طالبات الصف الاول، وطالبات الصف الثالث، وعرفت بنات المدرسة من خلالها بعضهن بعضاً ، على نحو آخر، ولاسباب لا تتعلق «بالبطة السوداء» او «الارنب الشرس» حتى حدث الذي حدث بعد ذلك، فانه قبل انتهاء العام الدراسي بشهرين حيث كنا على وشك التخرج من المدرسة للالتحاق بالجامعة، كانت لوكيميا قد خرجت على رأس المدرسة في مظاهرة رائعة تاه هتافها بين هتافات المظاهرة الكبرى الخارجة من الجامعة عند ميدان العباسية .





العاشقة

الابتسامة المطبوعة دوماً، كوشم ابدي على وجه الممرضة فايزة، والتي كانت السبب في ترقيتها أكثر من مرة، وحصولها على شهادة تقدير من ادارة المستشفى بالاضافة الى شهادة الاطباء والمرضى لها بطول البال وسعة الصدر، هذه الابتسامة التي تبرز سنها الامامي المكسور، وتفضح بالتجاعيد الخفيفة المرتسمة معها حول الشفتين حقيقة عمرها كامرأة اربعينية، اخذ شبابها في العد التنازلي منذ سنوات، وتضفي على نظرات فايزة مسحة من التفاؤل والبشر لا أحد يعرف على وجه التحديد، سرها، سر الابتسامة التي لا تغيب حتى عندما تناول فايزة الطبيب مبضعاً في غرفة العمليات، أو وهي تجري مسرعة في ردهات المستشفى لتلحق بالصيدلية قبل اغلاقها لإحضار الأدوية وقد تصور طبيب عاش سنوات في لندن، أن فايزة لا بد وان تكون قد تعلمت اصول التمريض خارج البلد، فهو لم ير ممرضة تعمل في مستشفيات الحكومة، تبتسم ابدا، ثم ان فايزة لطيفة ورقيقة، وتبدو ـ رغم انطباع بصمات الزمن على وجهها ـ كفتاة صغيرة ما زالت في ربيع العمر، تعيش حالة من العشق الدائم، خصوصا عندما تتنهد تنهدات ناعمة، وترسل نظراتها الحالمة الطويلة، التي دفعت المرضى مرات كثيرة الى محاولة تقبيلها اثناء الليل، عندما تكون مناوبة، وهي

تعطيهم الدواء او تحكم وضع الاغطية عليهم، لكن الحقيقة ان فايزة كانت تردهم بهدوء وحزم دون ان تعنفهم، وتعاود الابتسام من جديد.

فايزة نفسها لم تكن تدرك سر هذه الابتسامة، ربما لانها لم تفكر فيها ابداً، وربما لان الحياة لم تمنحها الفرصة للتفكير في نفسها كثيرا، فأمها ماتت قبل ان تلدها، ولولا وصول سيارة الاسعاف في الوقت المناسب ونقلها الى المستشفى، حيث تم فصل اللحم الميت عن اللحم الحي، لكانت فايزة في خبر كان، ولما رأت عيناها الدنيا ابدا، ثم انها شربت هم الزواج قبل الاوان، فبعد ان حاضت، للمرة الاولى، بسنة وتمدد جسدها بالطول والعرض تمدداً كافياً لاقناع الرجال بها كامرأة صالحة للمضاجعة وانجاب العيال، زوّجها ابوها لأول طارق طلب يدها وكان الأب ينشد ابعاد العبء عنه، وراحة البال لنفسه، ولابنته هدوء السر والسترة، اذ تصبح امانة في عنق رجل آخر يعينها على عوادي الزمن، وأفعال اولاد الحرام الطامعين في الولايا وبنات الناس، اللواتي لا حول لهن ولا قوة ولا سند في الحياة.

وفايزة بعد ان تزوجت المدعو عباس، خلفت قبل اكتمال العام، واستمرت تخلف حتى صار لديها شلة من الصبيان والبنات، اولاهم بنت داخلة في سن الطيش والنزق، واصغرهم صبي لم يبلغ الرابعة بعد، تجري وراءه فايزة بعض الاحيان في البيت لتضربه وتلمه من الحارة كلما غافلها وخرج، ثم انها تغسل وتمسح وتكنس وتطبخ، وتدور في حجرات الشقة، ولا تنتهي دوامة همومها، منذ صباح ربها، الذي يبدأ باعدادها للفطور، وايقاظ العيال من النوم، ثم الجري بعد حوالي ساعة من ذلك، وراء الاوتوبيس، للحاق به والوصول الى المستشفى في الميعاد المرصود، الذي تحافظ عليه فايزة محافظتها على روحها، منذ ان تعينت كممرضة في المستشفى الذي تقف بين جدرانه، وقوف الديدبان طيلة سبع ساعات يومياً وربما اكثر حيث تراقب الممرضات اللواتي تترأسهن وهن يخدمن

المرضى، خشية ان يسرقن دواءهم او طعامهم، وتتحمل سخافات هؤلاء المرضى الذين يأتي معظمهم من القرى البعيدة، للعلاج المجاني في مستشفى الحكومة، فتواسيهم وتسايرهم في الكلام والحديث، وتأخذهم على قدر عقولهم وفهمهم.

بينما تغرز حقنة في عجيزة احدهم، أو تقص جلداً مهترئاً حول جرح متقيح لآخر، وعندما يتألمون ويكيلون الشتائم لها ولأطباء مستشفى الحكومة، وللحكومة نفسها، ورئيس الجمهورية عند اللزوم، تبتسم وتواسيهم مطيبة خواطرهم، وتطمئنهم انهم سيستريحون بعد قليل، وحتى عندما يطلبون منها طلبات ربما لا يتجرأ الشيطان نفسه على طلبها، كانت تلبيها لهم عن طيب خاطر او تنهرهم بلطف، وقد اوشكت ممرضة اخرى في احدى المرات، ان تنقض على رجل عجوز لتضربه، عندما لاحظت ان فايزة اتته بالمبولة ما يزيد عن ستة مرات خلال ما يقل عن ساعة، لانها كانت تدرك ان الرجل لم يكن محصوراً ويكذب راغباً في التلذذ كلما راحت فايزة تدس المبولة تحت فخذيه وتلامس يدها جسده.

الشهادة لله، والجميع من تعاملوا مع الممرضة فايزة، انها كانت حالة نادرة بين الحكيمات والممرضات، اللواتي هن في واقع الحال ربانية العذاب في مستشفيات الحكومة، ومنها المستشفى الذي تغادره فايزة كل يوم وأقدامها تكاد أن تنفجر في داخلها الشرايين والاوردة، لكثرة اندفاع الدم فيها، بسبب الوقوف المستمر الذي يتواصل في البيت عند عودتها لكنها تمل من شغل البيت المفروض عليها فرضاً، بحكم كونها زوجة وأم للعيال، الذين لا تنتهي طلباتهم منذ اللحظة التي تطأ فيها قدمها عتبة الشقة، وحتى اذا ما لبت هذه الطلبات، فثمة مشاغل اخرى تبرز امام ناظريها فجأة، حيث يبرز كوب شاي فارغ، تركه زوجها بجانب السرير بعد ان شربه قبل قيلولته مخلفاً بداخله عقباً او عقبين من سجائره او تحمل الولد ابنها الى الحمام، وتجبره على غسل قدميه الوسختين، قبل النط على السرير،

والدوس على الفراش النظيف، الذي سبق ان رتبته منذ قليل.

منذ اليوم الذي لبست فيها فايزة الثوب الابيض وثبتت الطرحة التلى على رأسها، بعد ان نتفت شعر جسمها ووجهها وسوت حاجبيها وزغردت لها نسوان الحارة والحواري المجاورة، ابتهاجاً بدخلتها، وهي دائخة دوخة البهيمة في الساقية، فهي من البيت للشغل، حيث ينهد حيلها وينقضم وسطها من طيلة التوطئة والوقوف، بينما هي تغسل وتمسح وتطبخ.

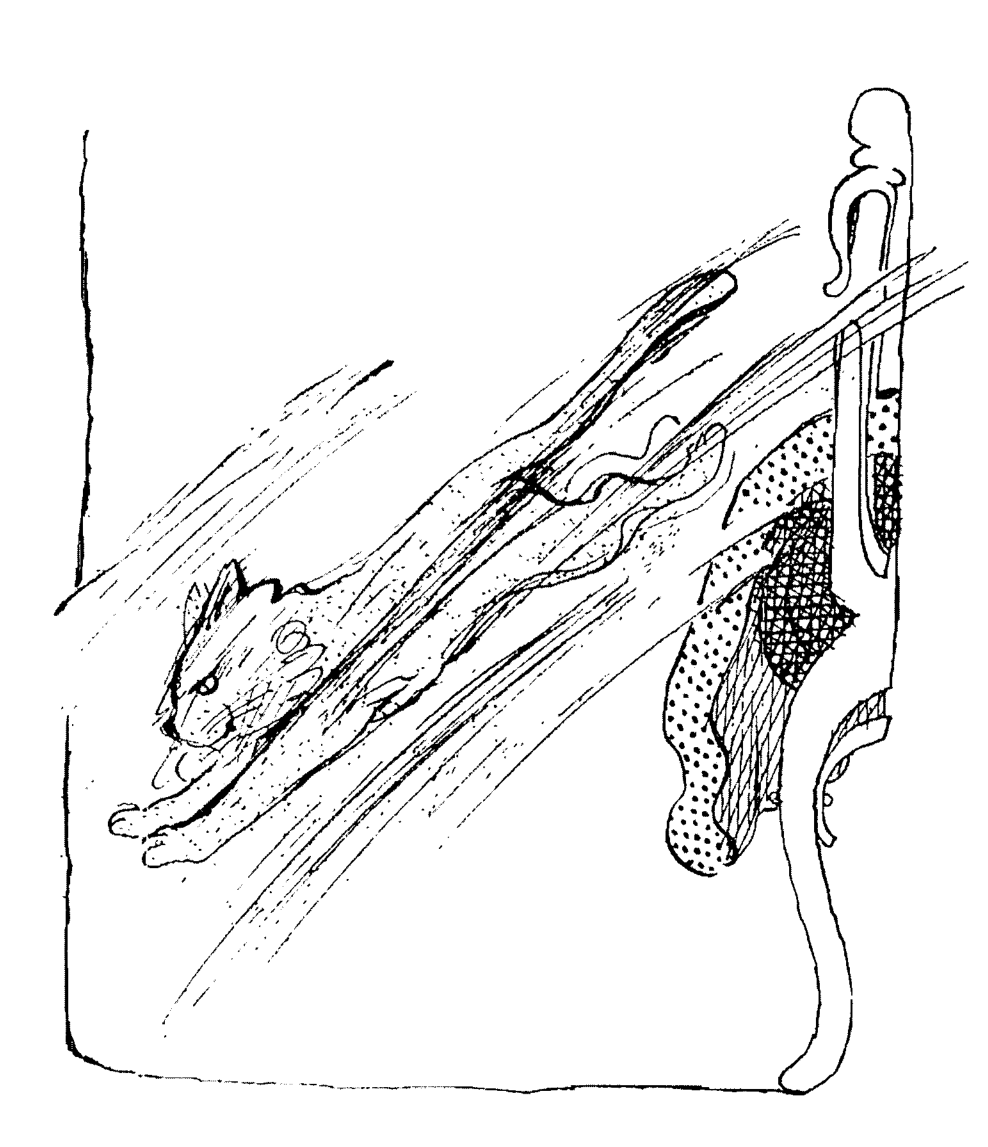
فايزة لا تشعر بلحظة حلوة في يومها، الا اللحظة التي تفرد فيها طولها على السرير، وترمي رأسها على المخدة، حيث تبدأ في الولوج الى عالمها الليلي الجميل، حين يأتيها ذلك الحلم الذي لا تعرف على وجه التحديد متى بدأ، ولماذا يستمر دون ان يفارقها في كل مرة تحط رأسها لتنام، حيث تنسى الدنيا وما فيها، عباس والعيال، المستشفى والمرضى، الكنس والمسح والطبخ، وتشعر انها في عالم آخر، ودنيا ثانية، وانها هي، فايزة.. ليست فايزة ابداً، ولا علاقة لها بالممرضة فايزة، لانها تكون في هذه اللحظات واحدة جميلة، جميلة جداً، أحلى من بنات السينما والتلفزيون، وحتى حوريات الجنة، اللواتي يحكون عنهن ولا تشبه فايزة التي ترى صورتها كل يوم في المرآة ويعرفها الناس، بجفونها المنتفخة، وبشرتها الشاحبة، وشحمها المتركز حول اكتافها ومؤخرتها، وتشققات كعبيها التي تبدو كتشققات ارض بور جففتها اشعة الشمس، فايزة التي يعلو صوتها بين الحين والآخر، وهي تزعق في ابنها الصغير، وتتصعب قائلة «اسكت يا مقصوف الرقبة وجعت قلبي».

كانت عندما تكتمل تماماً صورة فايزة الاخرى بعينيها بينما يتسلل الى اذنيها صوت شخير زوجها، مختلطاً بصفير صرصور مناوب في عفشة المياه، تجد فايزة نفسها في احضان شاب جميل، طويل فارع، تشكلت ملامحه من.

صور كل الرجال الوسيمين الذين رأت صورهم في المجلات او التقتهم في الحياة، انـه حنـون ورقيق ايضا، يمسح على رأسها مواسياً، يقبلها بين حاجبيها، ثم يجذبها الى احضانه ويطوقها بذراعيه، وبعد ان يستمرا على هذه الحال فترة، يسألها هامسا ان ترحل معه بعيداً. . بعيداً. . عن الدنيا، الى مكان هادىء نظيف، ليعيشا معا في ثبات ونبات، دون ان تخلف له صبيان وبنات، يوجعون رأسها بالشيل والحط، والمسؤولية عندئذ، تشعر فايزة انها حمامة بيضاء، محلقة في السماء الزرقاء، بالفرح والنشوة، وبعد اخذ وعطاء مع حبيب الحلم، تعود فايزة فتطوقه وتقبله مرة اخرى، وتقول له سأذهب معك يا روحي الى نهاية الدنيا، فأنا لا استطيع الحياة بدونك وبعيدة عنك مهما كانت الظروف.

لكن. . . دون ان تدري، كيف يجري لها ذلك على وجه التحديد، ترتسم فجأة في عينيها المغمضتين بقوة، وعلى نحو بالغ الوضوح، صورة ابنهـا الصغير، يبتسم لها ببراءة، قافزاً، ليطوق رقبتها ويمطرها بقبلات كثيرة، فتفيق قليلاً وتشعر بقلق وتتقلب في فراشها، ثم تزيح زوجها لينام على جنبه الآخر، ليكف عن الشخير، قبل ان تستسلم لسبات عميق.





ماجدي لبدي

كقطرة المطر المتساقطة على طرف أذنها، سارت وحيدة شاردة، تلازمها الحيرة، ولا تدري على وجه التحديد ذاك الذي حدث لها.

فعلى عادتها كانت قد رقدت متكومة على حاشية المقعد الطرية، تستمتع بمتابعة رقاص الساعة المواجهة لها على الحائط من خلال فرجتي عينيها، وهي تهرفي رضى. كان يتحرك مرة لليمين وأخرى لليسار، ولسيدة ذات الشعر الذهبي تسحب أنفاس سيجارتها وتنفثها بلطف، عندما عبق الجو فجأة برائحة غريبة لم تعرفها بوسي من قبل، كانت رائحة تنفذ الى داخلها، وتطغى على رائحة طلاء أظافر السيدة، التي كانت مشغولة باستخدامه، وعلى رائحة اللحم الذيذة التي كانت تهب من المطبخ بين الحين والحين.

نهضت وقوست ظهرها وتمطت وهي تتثاءب حتى بان حلقها، وراحت تجول برأسها وتحرك شواربها متشممة الهواء، وترسل بوقي اذنيها في كل الاتجاهات، علها تسمع صوتاً، وشيئاً فشيئاً، اعترتها آلام من نوع غريب، كانت في البداية ضعيفة خافتة، ولكنها سرعان ما احتدت واجتاحتها، وسيطرت على كل حواسها، ولم تكن كآلام الجوع أو الحاجة لقضاء حاجتها، التى تجعلها تموء في رقة ولطف، بل آلمتها فجعلتها تصرخ غير

قادرة على النوم، وزاهدة في مداعبة خيوط السجادة، وسرعان ما فقدت شهيتها للطعام، وظلت تتلوى على الارض من حين لآخر.

وفي اليوم الأخير قبل أن تذهب، جاء رجل ضخم، ووقف ينظر الى السيدة، وهو يمط شفتيه في امتعاض، ويطلق أصواتاً مختلفة أخافت بوسي، وجعلتها تختبىء في مكانها المفضل خلف أفروديت الرخامية الجميلة، الواقفة في الركن، والسيدة تشيح بيدها، فتتحرك معها اساورها الذهبية اللامعة، مما جعل لدى بوسي رغبة لاتقاوم في أن تقفز وتلامسها بأظافرها.

وعندما جاءت البنت الصغيرة، التي كانت تضع لها اللحم في الطبق الكبير، واللبن في الطبق الصغير، من المطبخ، وهي ترتدي فوق رأسها ذلك الشيء الملون، الذي كانت القطة تميزها به عن الآخرين، وظلت تبحث عنها تحت الاريكة والكراسي المذهبة والمنضدة الرخامية، حتى عثرت عليها، في مكمنها، فرفعتها برفق، وفكت الشريط الحريري الأحمر ذا الجرس الفضي عن رقبتها، ثم فتحت الباب، وسارت بها بعيداً بعيداً، ثم تركتها وذهبت.

ثلاثة أيام قضتها بوسي في ذلك المكان، تصارع القطط، ويتصارعون عليها، كانت في البداية خائفة مذعورة من نباح الكلاب، تحدق بدهشة في تلك الاكوام الهائلة من الاشياء ذات الرائحة العفنة، وتبحث عن أماكن طرية مريحة ترقد فيها مثلما كانت تفعل في البيت القديم، بحثت عن الطبق الكبير والطبق الصغير، ولكنها لم تجد لبناً ولا لحماً، أما الذباب الذي كان يحوم حولها في النهار، والناموس الذي يلسعها في المساء، فكان أشد ما يضايقها. الشيء الوحيد الذي ارتاحت له بوسي في ذلك المكان، كان اختفاء تلك الآلام الرهيبة التي داهمتها من قبل.

وها هي تترك ذلك المكان هاربة، عندما زمجرت السماء وسقط المطر،

ومازالت تجري وتنط، وترغب في أن تتوقف قليلاً ريثما تستريح وتلعق فراءها المبتل، لكن لم تكن هناك فرصة لذلك، وراحت تتقافز بجانب الجدران رعباً من الخطى الآدمية التي راحت تتجاوزها، مسرعة عندما تلاقيها، وفكرت أن تتوقف أمام دكان اشتمت منه رائحة لحم. لكن العجوز المتربص على بابه لم يمهلها لتفكر، لقد اشاح لها بمقشة طويلة، فلاذت بالفرار.

عندما توقف المطر وبانت النجمات لامعة في السماء، توقفت القطة لاهثة، ترقب الاشياء في حزن، وترغب في الأكل والدفء والنوم، وظلها يرتسم على اسفلت الرصيف، في ضوء العربات المسرعة، مرة كبيراً يصعد الجدران، وأخرى صغيراً باهتاً. وكانت تلعق فراءها المبتل، وتستريح، عندما تحسست تياراً واهناً من الدفء يسري الى جسدها بين الحين والحين، نفضت فراءها مرة واحدة لتزيل ما تبقى عليه من قطرات، وترقبت مستطلعة، وسرعان ما مرقت من خلال الاسياخ الحديدية الصدئة، وزجاج الشباك المكسور الذي كان بجوارها يطل على أرضية الشارع، وتهب منه النسمات الدافئة، وبقفزة واحدة رشيقة، القت بجسدها على بلاط الحجرة العاري.

التمع البؤبؤ واستطال في عينيها، وهي تدور ببصرها على الجدران المغطاة بصور كثيرة ملونة ومسامير بارزة وقد علقت عليها ملابس كالحة، وكانت قطع الأثاث القليلة، قد استندت الى جدران، باهتة، تكاد تتداعى. حدقت القطة بشدة، حيث كانت تجلس امرأة على الأرض، تتوسط كومة من العيال، حول طبلية صغيرة، يغمسون أيديهم في الأطباق ويرفعونها الى أفواههم بسرعة.

وكانت المرأة تضع على رأسها الغطاء الملون نفسه، الذي كانت تميز بوسي به البنت الصغيرة، واضعة اللحم في الطبق الكبير، واللبن في الطبق الصغير.

تعجبت القطة وخافت، ولكنها سارت تتهادى عندما دعاها الولد، الذي كان أنفه يسيل على شفتيه قائلاً:

بس... بس... بس، والذي هب من مكانه، وعيناه تضحكان في مرح، وراح يحملها في حضنه، وثقلها يجعله يتحرك بها بصعوبة.

استسلمت في رضى، فمنذ أيام لم تلق حناناً من أحد، ولم تربت على ظهرها أو تداعب رأسها يد، فقط تضايقت من ملمس أصابعه المبللة بالزيت، وهي تتحرك على فرائها فودت لو يطلقها لتلعقه.

هتفت المرأة لمرآها:

- قطة حلوة... خلوها عندنا تأكل الصراصير، وتصيد الفئران.

والقت اليها بلقمة خبز سوداء مغمسة بزيت الفول، تشممتها القطة، وابتعدت عنها متأففة، وواصلت المرأة ابتلاع طعامها في نهم.

أما الصغار فتدافعوا حولها يتلاعبون، وضع واحد يده على رأسها، وراح آخر يتحسس ذيلها، وثالث يبحث عن موضع أثدائها، وهي تتحمل ذلك على مضض، ولكنها لم تطق صبراً، عندما حاول الصغير الزاحف على بطنه أن يجذبها من شواربها، فرفعت يدها مهددة، وهي تنفخ في وجهه، فخاف وتراجع باكياً.

عندئذ. هتف الرجل الذي كان يجلس في الطرف الآخر من الحجرة بعد ان ابتلع نفساً طويلاً من «البوري»، دافعاً بسحابة زرقاء من الدخان أخفت ملامحه:

- اطردوها.. يظهر أنها مسعورة.

بعدها. أخذت القطة تجري، وأحذية قديمة وعلب فارغة تطير نحوها في الهواء، وانطلقت من حيث جاءت بأقصى سرعة استطاعتها، ومرة أخرى كانت تسير على الرصيف.

صفرت الريح لافحة عظامها ببرودة مؤلمة، وكان أنفها يبتل بللاً

ضايقها، والجوع والتعب يدفعان بها لأن تطلق مواءً حاداً مستجدياً، وكانت تخاف ان تقابل قططاً أخرى في تلك الليلة التي لا تقوى فيها على صراع أو مشاحنة.

مرقت من بوابة مظلمة، وراحت تقفز درجات سلمها دون ان تتوقف، وأنفاسها تكاد تسكت عنها، وعندما واجهت سطحاً فسيحاً توقفت؛ لم يكن فوقها غير السماء والسحب الرمادية الداكنة، لمحت القطة الضوء الخافت يتسرب من فتحة الباب الذي يتوارب عندما تدفعه الريح ليعود ويرتطم بافريزه الخشبي.

مرقت منه في حذر بعد ان دفعته بيدها قليلاً، وراحت ترقب الأشياء. لم يكن يتحرك أمامها غير جسد امرأة، وهي تنحني بين الحين والحين حتى تلامس جبهتها الارض، وتعود لترفع هامتها متمتمة.

رغبت القطة في أن تقفز وتخمشها في ضفيرتها الصوفية البارزة من طرف وشاحها، والتي كانت تتحرك مع حركتها، ولكنها اشتمت رائحة أكثر جاذبية، جعلتها تسحب هواءً كثيراً الى صدرها، وبسرعة قفزت الى حيث كانت علبة السالمون موضوعة على المنضدة المكسورة في الركن، أدخلت رأسها في داخلها. فهوت على الارض لتبرز منها نصف سمكة فضية هزيلة، راحت تلتهمها في نهم وهي تتوقف بين وقت وآخر، علها تجد أحدا ينوي اقتسامها معها. كانت لا تصدق أنها تأكل في تلك اللحظة، وعندما فرغت من السمكة لعقت جدران العلبة بقدر استطاعتها، ومسحت ما تناثر منها على الارض بلسانها الخشن في تلذذ. راحت تمسح فراءها الأسود فالتمع، ومسحت وجهها بيدها، وخلصت ذيلها من أقذاره، وبينما هي تستعد للقفز فوق السرير، الذي اكتشفته، لتتمدد بين الاغطية، تسمرت وفتحت عينيها عن آخرهما في وجه المرأة التي كانت قد انتهت من صلاتها، وراحت تخرج المسبحة من صدرها، وتتمتم بالحمد. اعجبت القطة حركة

الاصابع وهي تعد حبات المسبحة الصفراء في وتيرة سريعة منتظمة، وكانت لا تمانع في اللعب الأن، أما المرأة فقد أسفت على ما حدث للسالمون، وثارت بها رغبة في ضرب القطة وطردها، ولكن الليل والظلام وتلك الدهشة والنظرات الغريبة في عيني القطة جعلتها لا تفعل. حوقلت ونظرت اليها، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم. كان فراء القطة الأسود الداكن، ونظراتها الثابتة التي لا تحيد عنها، يجعلان شعوراً مبهماً من الرهبة يسري في روحها، وتعتريها اهتزازات خفيفة يتحرك لها الوشم الاخضر أسفل ذقنها.

القت المرأة بالبسملة كاملة، والقطة جالسة ما زالت تحدق بها، لكن هريرها سرعان ما تصاعد في رضى. تنفست المرأة براحة، فربما كانت تلك الروح الطيبة التي تصلي أمامها، والتي جاءتها في جسد قطة، هي روح ابنها المتوفي، وقد اتت لزيارتها.

تشهدت بصوت مرتفع، ونادت على القطة ضاربة على فخذها ضربات خفيفة، نظرت القطة حولها في دلال، وبدت كما لو كانت لا ترى، ولكنها سرعان ما سارت اليها، وقفزت لتستقر على فخذها في انتظار أن تمسح المرأة على رأسها، أو تداعب تلك الاماكن الخشنة في ذقنها، والتي لا تستطيع ان تنظفها جيداً.

فكرت المرأة بروح ابنها الطاهرة، واطمأنت الى أنها قد حشرت في زمرة الاخيار، فالقطة كانت تقرأ اورادها لداود الملك ـ أبو الأنبياء وسيد الجنة والحيوانات ـ وصدقت المرأة اعتقادها قائلة لنفسها «لو كانت روح نجسة لجاءت في جسد كلب»، وتذكرت ابنها، ودموع كثيرة تنسكب من عينيها، وفكرت كيف بذلت حياتها من أجله، وربته، ولكنه راح منها منذ سنوات، وها هي لا تستطيع الا ان تظل هكذا، تنتظر روحه لتأتيها وتطل عليها. فكرت في أن تحادثه وتقول له: «يا محمد يا ضناي لا تحزن لأنني لم

أزرك في العيد الكبير، فلقد كنت مريضة، ولم أستطع التحرك لمدة أسبوع، ولكني وزعت الصدقة على روحك للمساكين، مثلما أفعل دائماً»، وبأن تقول له أيضاً كيف أنها ندبت وولولت يومها وما خلّت. كانت ترغب في أن تقول له أشياء كثيرة عن حياتها بعده، ولكنها خافت من ان ترفع صوتها بمثل هذا الكلام في حضرة الروح، وأطرقت خاشعة فالروح ما زالت تقرأ صلواتها للنبي داود.

تضايقت القطة من الدموع التي سالت على رأسها، فراحت تحكه في صدر جلباب ام محمد الاسود الخشن. هاجت مشاعر المرأة وتذكرت حنان وحيدها الراحل، وهمست لحالها متصعبة: «كنت في شوق لهذه الزيارة من زمان يا ولدي، وربتت على ظهر القطة فماءت طالبة المزيد من الحنان، ظنت المرأة ان بوسي عطشى، فنهضت وعادت اليها بإناء صغير من الماء، تشممته القطة، ونظرت فيه، ومدت لسانها تذوقته، ولكنها ابتعدت آنفة. فكرت المرأة في أن تحبسها لتستبقيها ولا تدعها تخرج، ولكنها خافت، واستعاذت بالله من وساوس الشيطان، وهل تجرؤ على حبس روح تسري في الليل؟!. جلست على حافة الفراش، فقفزت القطة الى جانبها، وفكرت المرأة أن تأخذها في حضنها مثلما كانت تفعل مع وحيدها الراحل وتهدهده. راحت تبكي وقد صعب عليها حالها، وشعرت بأنها وحيدة بائسة، بينما كانت القطة قد رقدت بجانبها، تتصاعد أنفاسها دافئة، وتتمطى بين الاغطية.

كان النعاس قد بدأ يداعب المرأة، وبدأ غطيطها يعلو وهي تحلم بأن وليدها في حضنها يقاسمها الفراش، عندئذ كانت القطة قد ملت الرقاد، وقفزت الى الارض باحثة عن نصف سمكة فضية أخرى.





زينات في جنازة الرئيس

المفروض ان اسمها «زينات» لكن الكل كانوا ينادونها « زنات » حتى عبده المزيّن، عندما كان ينتهي من خط رسالة، بالنيابة عنها، الى رئيس الجمهورية، الذي دأبت على مراسلته، كان يذيل ما يكتبه باسم « زنات محمد علي» وذلك بعد ان يثبت القلم بين اصابعها جيدا، ثم يطبق على يدها بيده ويحركهما معا، ليكون الامضاء بيدها فعلا، وزيادة في تأكيد ذلك، كان يبلل قلم الكوبيا بريقه، ويلون به ابهامها حتى تتكون بقعة بنفسجية كثيفة، تكفي لطبع بصمة واضحة المعالم، فوق حروف الاسم، الذي كتباه معا.

ويمكن القول انه خلال السنوات الاخيرة من حياة الرئيس، نشأت بينه وبين زينات علاقة خاصة جدا، ومع انهما لم يلتقيا خلالها ابدا وجها لوجه، الا انه، ورغم كل شيء، يصعب القول انها علاقة من طرف واحد، صحيح انهما لم يلتقيا، ولم يتسن لزينات ابدا ان تحادثه، وتقول له بلسانها كل ما تود قوله، لكن العلاقة المستمرة بينهما وصلت الى حد انها رتبت خطة، تصورت انها دقيقة، لا تخرّ المياه، لكن الايام، وساعة التطبيق، اثبتت فشلها فشلا ما كان يخطر ببالها وخاطرها ابدا، بل واكثر من ذلك ان عبده المزين نهرها بشدة، وحذرها من معاودة عملتها المجنونة

تلك، لان الله ستر هذه المرة، وكان ممكنا جدا ان يأخذوها ـ زينات نفسها ـ ويخفوها وراء الشمس، دون ان يعرف الجن الازرق قرارا لها، بل وقال انها عبيطة لانها تصورت انهم سيسمحون لها بالاقتراب، الى هذه الدرجة من رئيس الجمهورية، ومحاولة مصافحته، اليد باليد، وتسليمه العريضة، ثم هل نسيت العسكر والمخبرين والحرس، الذين يحوطونه من كل ناحية، مطرح ما يروح؟!

والحقيقة ان نصائح عبده لزينات لم تكن اكثر من تحصيل حاصل، لانها جربت بنفسها كل كلمة قالها، فرغم انها كمنت، من طلوع النجمة، على ناصية شارع من الشوارع، التي تعرف ان الرئيس يمر بها، كل مرة، بعد صلاة الجمعة، ورغم انها استطاعت، كنتيجة لذلك، الحصول على موقع متقدم جدا بين الجموع، التي تقاطرت لتحية الرئيس، بعد ان كتب لها تلميذ من تلامذة المدرسة، رسالة صغيرة، نوت زينات ان تسلمها للرئيس، لتكون كلمتين ورد غطاءهم، ونصها الحرفي: «زنات بتسلم عليك، وتقول لك عملت ايه في الموضوع اياه؟»، رغم كل ذلك، فانها في اللحظة التي تصورت فيها ان سيارة الرئيس قريبة منها بما يكفي، لتخطو تجاهها، بسرعة، وتهجم عليه، لتصافحه وتسلمه الورقة، فوجئت دون ان تدري بعشرات الايدي الغليظة، لعسكر ورجال آخرين، برزوا فجأة، كما لو انهم سقطوا عليها من السماء، وراحت تدفعها بعيدا عن السيارة والموكب، لتسقط بين الاقدام، التي لاحظت زينات، ساعتها، ان عديدا منها مغطى بأحذية جلدية عالية، ثبت في بعضها طبنجات تكفي لجزر بلد.

لكن هذه الحادثة المؤسفة، وفظاعة الالام، التي عانت منها زينات بعد ذلك، لم تحل دون استمرار علاقتها بالرئيس، ولم تغير نفسها، من ناحيته، ابدا، كما ان صوره في عشتها بقيت في مطرحها، كما هي، تلك الصور، التي لم يكن اي شيء سواها يزين العشة، التي بنتها زينات، بنفسها، من

الحجر والطوب والصفيح، بعد ان استولت على بضعة امتار من ارض الحكومة، على جانب الطريق العمومي، حيث تجلس امامها، مناوبة، من الصبحية، حتى قرب غروب الشمس، في انتظار دخول وخروج تلاميذ المدرسة الابتدائية، التي كانت، في الواقع، ثلاث مدارس في مدرسة واحدة، يدخل اليها الأولاد والبنات، على دفعات، للدراسة، وكانت زينات تبيع لهم العسلية والفشار والترمس والعاب بلاستيكية صغيرة، تكون من حظ اولئك الرابحين في لعبة الحظ، التي يشترونها منها.

اما تشييع الرسائل للرئيس، فزينات لم تتوان عنها ابدا، مما يؤكد، مرة اخرى، ان العلاقة بينها وبين الرئيس لم تتعكر، وانها فضلت صافية، لبن، وكانت زينات تشوف الحادث على اساس انه جرى من وراء ظهر الرئيس، لانه لو دري ان اولاد الحرام، إياهم، منعوها من السلام عليه وتسليمه الورقة، لكان، ولا بد، يروحهم وراء الشمس، فهو يفهم، ويعرف نية زينات، وانها لا يمكن ان تقصد اذيته، والا، ولو كان الامر عكسه، لما كان رد على خطاباتها له، اكثر من مرة، وما كان موضوعها جاريا نظره في الحكومة، وما كان ارسل لها موظفة من الدولة، لتعاين الدهشة بنفسها، وتشوف بعينها حالة زينات، وتسألها اسئلة كثيرة عن احوالها، واحوال الدنيا معها، بل انها اكدت لها ان موضوعها سيخلص، خلال الشهور القليلة القادمة.

والشهور القليلة، التي تلت ذلك، لم تخيب ظن زينات بالرئيس، بل ويمكن القول ان الخطة، التي رسمتها، على ضوء تصريحات موظفة الحكومة، قد نجحت هذه المرة. والواقع انها كانت خطة تنمية صغيرة، رسمتها زينات لنفسها، تتلخص خطوطها العريضة في ان توسع على روحها في الاكل، بين الحين والحين، وفي سبيل ذلك تشتري وابور جاز، وحلة المونيا لتطبخ فيها كلما هفت نفسها لاكلة لحم، كما ستقوم بشراء جلابية قطيفة زبدة، وقمطة بالخرز، بدلا من جلابيتها المقطعة. وقبل كل

شيء، وباذن واحد احد، سوف تسدد ديونها المنظورة، التي تتلخص في جنيهين لعبده المزين، آخر دفعة تبقت له من دين قديم، استلفته منه، لتشتري بضاعة جديدة تتاجر فيها، وكذلك ديونها غير المنظورة، والتي هي عبارة عن عدة دعوات من اخيها، صاحب العيال، لاكل اللحم، وعدة خمسينات قروش، كان يمدها بهم، عند اول كل شهر، وقد عزمت زينات على زيارة اخيها، باثنين كيلو لحم، عندما تمسك الفلوس بيدها. وقبل كل شيء، زوج فراخ محترم، وزجاجة شربات ورد، هدية خالصة لعبده المزين، نظير عطفه عليها، وخدماته لها في كتابة الرسائل لرئيس الجمهورية، وهي الخدمات، التي كللت اخيرا بالنجاح، جيث تقرر صرف معاش استثنائي لها، قدره ثلاث جنيهات، بالتمام والكمال، اصبحت بسببهم تذهب شخصيا، وبكل فخر وثقة واعتزاز بنفسها، وبرئيس الجمهورية، الى خزنة الحكومة، في طلعة كل شهر، لاستلامهم بعد ابراز السيركي اللازم لذلك، بالاضافة للبطاقة الشخصية التي حرصت زينات عليها، بعد استخراجها، حرصها على عينها ذاتها، ولا ادل على ذلك من انها تحفظها في مغلف بلاستيكي، اشترته بشلن كامل، كما انها تدسها تحت فراشها، وتتأكد من وجودها في مطرحها، كل فترة، ليس بسبب المعاش، والسلام، ولكن لانها حطتها في عين عسكري البلدية بكل ثقة بالنفس لما حاول الاحتكاك بها وابتزازها اثناء شوفة شغلها، وراح يهددها بسحبها للقسم لكونها بدون بطاقة. فرجع مخذولا وقفاه كالرغيف السخن، بعد ان مسخرته، ووضبته بالكلام الشديد.

لكن الثلاث جنيهات لم تكن مسك الختام في موضوع العلاقة مع رئيس الجمهورية، فرغم انها استلمت دفعة فلوس لم تكن لتحلم بها طوال عمرها، وتبلغ قيمتها ثمانية عشر جنيها، لان قرار حصولها على المعاش صدر باثر رجعي، يحق لها بموجبه ان تتقاضى عن مدة ستة شهور، ورغم انها عملت الهوائل بهذه الفلوس، فاشترت طوبا احمر جديدا اكملت به

جدران العشة، بعد ان ازالت الحجر والصفيح، وفتحت شاكا، يدخل منه الهواء والنور الى داخلها بالراحة، ووسعت على نفسها، حتى انها اشترت فرخة كاملة، تلذذت بأكلها، وحدها، دون مشاركة مخلوق، لذة لا تنسى، خصوصا عندما كانت تدفع باللحم المسلوق الى فمها، مخلوطا بالارز المطبوخ، المندى بشوربتها الساخنة، رغم كل ذلك. . ورغم التغيرات الجوهرية، التي طرأت على حياة زينات، وكان منها انها توسعت في حجم البضاعة، التي تتعامل بها، وادخلت عليها اصناف جديدة، كاقلام الرصاص والمحايات، الا ان عبده المزين «سلمت يده، وحفظ الله له نور عينيه»، وفقا لنص دعوات زينات، الصادقة الصدوقة، اه دوما اشار عليها ان تستأنف العلاقة، وتداوم على ارسال الخطابات للرئيس، على ان ترتفع فيها نغمة الشكوى، اكثر، وتتظلم طالبة زيادة في المعاش، بحكم انها ولية وحيدة، لا عائل ولا معين لها في الدنيا، ولا سامع لشكواها غير الله، ورئيس الجمهورية.

وبصراحة، فاق الجهد الذي بذله عبده المزين، في كتابة الخطابات الجديدة، كل مجهوداته في كتابة خطابات المرحلة الاولى، التي توجت بحصول زينات على المعاش، وذلك لان القانون الصادر، بهذا الشأن كان واضحا، فيما يتعلق بحق زينات في المعاش، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فالخطابات الاولى كانت مبررة، لان زينات لم تكن قد حصلت على المعاش بعد، اما الان فتلبية طلبها سيكون على نحو استثنائي، وبناء على توجيهات رئيس الجمهورية، والذي يمكن ان يأمر بذلك عندما يشعر، من خلال الكلام المكتوب له، بحقيقة اوضاع زينات، وظروفها الصعبة، التي تصعب على قلب الحجر نفسه وتفتته.

لذلك فان عبده المزين حك قريحته، حكاً شديداً، ليخرج عصارة قدراته البلاغية، في محاولة للتأثير على الرئيس بما يكفي لاصدار الامر اللازم لزيادة المعاش، لكن يبدو ان مستوى ما يكتبه كان ضعيفا على نحو

او آخــر، لأن رداً واحــداً لم يصــل من الــرئــاســة، يتعلق بمصير تسعة خطابات، كتبهم عبده، على يد زينات نفسها، بهذا الخصوص، لذلك وقبل سماع زينات للنبأ العظيم بأيام، كان عبده المزين قد وصل الى قمته البلاغية في كتابة الخطاب العاشر للرئيس، ولا يمكن انكار ان زينات، نفسها، شاركت بجهد لا ينكر في كتابة متن هذا الخطاب، بعد ان ظلت تتباحث مع عبده، في دكانه الصغيرة، حوالي ثلاث ساعات، حتى يخرج الكلام في احسن صورة، وقد اضطر عبده الى كتابة الكلام عدة مرات، بعــد ان ظلت زينــات تعيد الصياغة، وتمد عبده بافكار جديدة مؤثرة. والحقيقة ان عبده، رغم كونه طيبا واميرا جدا، لم يكن ليصبر، كل هذا الــوقت، لولا ان الــدنيا كانت آخر شهر، والزبائن معدومة أرجلها على الدكان تقريبا، ولكن عبده كان يستمتع ايضا بالكتابة، لانه اكتشف، من خلالها، انه يستطيع ان يقول كلاما جميلا، وحلو للغاية، تأثر به هو نفسه، كما ان نتيجة كتاباته الاولى عززت ثقته بنفسه، وبقدراته الكبيرة في هذه الناحية، وهو ايضا لا ينسى هدية زينات المشجعة له، والتي كانت، على أرض الــواقع، ذكر بط كبير، القمته زينات، لمدة اسبوع، قبل تقديمه لعبده، فولا ناشفا، عند كل عشية، حتى ثقل وزنه، واصبح في حجم بجعــة تقــريبــا، وقــد ترافق مع زجاجتي شربات، واحدة ورد، والثانية مشمش، وعــلى اية حال، كانت الهــدية، على بعضها، مفاجأة حقيقية لعبده، الذي لم يتوقع ان تكون فخمة ومكلفة على هذا النحو.

بالنسبــة للخــطــاب الاخــير، كان عبــده قد حاول في البــداية تطعيم الديباجة التقليدية، التي يكتبها كل مرة، والمنصبة على الشكر والحمد، واطــراء رئيس الجمهــورية، ببعض آرائــه السياسية، المتعلقــة بالمــوقف الــراهن، ورأيه في الامــريكــان والانجليز، ودور الاقــطــاع المتحالف مع الاستعمار، وغيره من الكلام الذي كان عبده يحبه جدا، وقد حاول كتابته، ليظهر مدى اطلاعه على الصحف والمجلات ايضا، وكان سيتطرق، من

خلال ذلـك، الى موضـوع، زنات وطلبها المذيل بأمنياتها في اطالة عمر الرئيس، وطرح البركة فيه، وفي عياله، والدعاء لله ليكفيه شر اعدائه، ومن يتشدد لهم.

لكن زينـات، صاحبـة الخطط، كانت تحمل في رأسها فكرة جديدة للكلام، فكرة تشكلت من خلال جلوسها، كل يوم، امام صور الرئيس، ومحادثتها. فقد احبت زنيات رئيس الجمهورية جدا، بعد رده عنيها، وبعد حكـاية الثـلاث جنيهات، وكانت تشعر انه سندها الحقيقي في الدنيا، وداخلها احساس بان صوره تؤنس وحدتها، وتزيل الوحشة عن نفسها، عندما تكون وحيدة بالعشة، كذلك قررت ان تكلمه بصراحة، وتقول له كل ما عندها من كلام تحبسه في نفسها، هكذا قالت لعبده المزين، الذي رفض الفكـرة في البداية، واعتبر ذلك تدخلا منها في اختصاصه، لكنها ترجته، وطلبت منه ان يتركها على راحتها، «يمكن ربنا يجيب الطوبة في المعطوبة». وكانت تقصد بذلك الخطاب. وعبده، في الآخر، تركها تقول ما تود قوله، لانه خاف ان يكون هذا الكلام هو الكلام الثماني، الذي سيجلب الفائدة لها، فيحرمها منها، وهي الولية المسكينة، فكتب كل ما قالته زنيات للرئيس، حيث حكت حكايتها من طقطق للسلام عليكم، ومن لحظة موت ابيها، وهي صغيرة، حتى ما بعد ترملها، وهي ما تزال بنتا بنوتا لم يدخل عليها عريسها، الذي مات مع صاحب الدكان الذي كان يعمل عنده في حريق، كما روت له كيف انها ظلت بعد ذلك مع اخيها الـوحيد، لكنهـا، بعـد ان تزوج، وبقي مربوطا من رقبته بكومة عيال، تركته، وتركت الخناق، كل يوم والثاني، مع ام العيال، وراحت تعيش لوحدها في العشة، وحكت له ايضا انها حاولت ان تشتغل اكثر من مرة، دون جدوى، وكان آخر هذه المحاولات، التقدم لمسك شغلة عاملة نظافة في المدرسة القريبة لسكنها، لكنها رفضت، لانها لا تعرف القراءة والكتابة ثم بعد ان شكرته، على الجنيهات الثلاث، بكلمات كثيرة مؤثرة، وكذلك

على الثمانية عشر جنيها، ودعت له من قلبها، دعاء مناسبا، قالت له: «لا مؤاخذة، وبلا صغرة، الثلاث جنيهات لا تكفي شيئاً، لان كيلو اللحم دخل سعره على الجنيه، وكيلو الترمس بقي بنص الجنيه»، ثم فوق ذلك، فهي تشتري علبة الدواء، الذي نصحها الحكيم بالمداومة عليه، بالشيء الفلاني، وحكت له ايضا انها وحيدة، وانها تستحي ان تمد يدها لمخلوق على الارض مهما كانت الظروف، لذلك فهي تطلب منه، تحديدا، طلب الاخت من اخيها، والعيلة من ابيها، وصاحب الحاجة من القادر المستطيع»، ان يزيد معاشها قليلا، بحيث يكفي لسد مطالب الدنيا، ثم طلبت من عبده المزين ان يحكي للرئيس، بالتفصيل، حكايتها يوم خروجه، في موكب صلاة الجمعة، وتصرف العسكر، الذين بلا اصل ولا شرف، معها، لكن عبد الرزين رفض، رفضا باتا، هذه النقطة، بالذات، لانها قد تؤدي الى عدم وصول الخطاب الى رئيس الجمهورية، اذا ما فتحه واحد غيره وقرأه، واقترح ان يضيف في نهاية الكلام بعض الابيات الشعرية، التي ما زال يحفظها، من ايام الابتدائي، لكن زينات رفضت، وقالت له ان الرئيس سوف يفهم الكلام، على حاله، ولا داعي للشاعر، فاكتفى عبده بخاتمة انشائية، اكد فيها ان الشعب كله وراء القائد البطل في وقوفه ضد الاستعمار والرجعية.

زينات، ارتاحت للخطاب جدا، وكانت واثقة ان الرئيس، لا بد وان يرد عليها، ويتخذ اللازم بالنسبة لطلبها، لانها كتبت له كلاما ما بعده كلام، وكانت تحلم ان يزيد المعاش الى خمس جنيهات، بل وكانت قد وضعت، في مخيلتها هيكل خطة جديدة لحياتها، على ضوء ذلك، فثمة هاجس داخلي، يتنازعها، بان الخمسة جنيه لو اكتملت في يدها، اول كل شهر، لا بد وان تكون نقلة كبرى، ستغير حياتها، بل وربما ساهمت في تحقيق حلمها الدائم، ذلك الحلم، الذي لا يغيب عنها ابدا، بالزواج وان تصبح اما. صحيح انها، في الواقع، بعيدة عن ذلك الحلم، لأن العمر

جرى بها، وتخطت سن الطلب، ولأنها حتى عندما كانت في سن الطلب، بعد وفاة عريسها، لم ينظر اليها صنف مخلوق، لانها ـ يا حسرة ـ لا مال ولا جمال ولا يحزنون، لكن الجنيهات الخمس، ربما تحرك واحدا للتفكير بها، والحقيقة ان زينات كانت حاطة عينها على كناس عجوز تشرفه مرات، يكنس الشارع العمومي، الذي تجلس بالقرب منه لتبيع، وقد عرفت منه انه هجّ، وترك امرأته وعياله، منذ سنوات طويلة، ونزل مصر، دون ان يعرفوا له قرارا، حتى الان، وكانت نظرات خبيرة منها كفيلة بان تخمن امكانية خروج عيل من صلبه. وفكرت ان الجنيهات الخمس، قد تغريه بما فشلت الطبيعة، التي شكلت معالم وجهها وجسدها، في اغرائه بها.

لكن الدنيا غرورة وكذابة، وما دامت لأحد، هكذا ظلت زينات تردد من ذلك اليوم المشؤوم، الذي جاءها فيه عبده المزين بالنبأ العظيم، بعد ايام من ارسال الخطاب، الذي اشتركا في كتابته، الى الرئيس. فلقد راحت له في الدكان، لتسأله ان كان قد وصل رد من رئيس الجمهورية، لانها كانت تكتب عنوانها، عنوان دكان عبده، لانه واضح ومفهوم ولا يمكن ان يتوه عنه البوسطجي ـ لكن المزين، الذي انتظرته زينات بجوار دكانه، ما لبث ان برز من آخر الحارة، ولونه مخطوف واصفر كالكركم، وهو يلطم كالحريم، بل ان زينات ساعتها احست ان المياه لا بد وان تكون قد سابت بين وركيه، خصوصا عندما رأته يندفع كالممسوس الى الراديو، ليديره وهو يصرخ، مات الرجل، مات الرئيس يا عالم، الرئيس توفى يا ناس.

ساعتها لم تشعر زينات الا ويدها تمسك بتلابيب عبده، وقد تفجر في داخلها غضب غريب، غضب هائل، جعلها تشتمه، وتقول له: «اخرس قطع لسانك.. قطع لسانك يا عبده، ارمي من بقك يا عبده الكلام الاسود ....».

لكن اهالي الحارة كلهم كانوا قد تجمعوا حولها، كانت نظراتهم تنطق بالحقيقة المرة، التي رفضت زينات تصديقها، مثلما عبرت عن هذه الحقيقة الدموع، التي سالت على كل الوجوه، كما لو كانت تسيل بفعل ضغط على زر اوتوماتيكي، اما الشعور المنكوشة التي تساقطت عنها طرح النساء، واكف الرجال، التي كانت تخبط على بعضها في حسرة، فقد كانت كفيلة بان تجعل زينات توقن انها في علم وليس في حلم، فما كان منها الا ان صرخت بالصوت الحياني، وصاحت صيحة عظيمة سقطت بعدها مغشيا عليها.

زينات، ساعة الجنازة، عملت حاجات كثيرة. في الاول، فضلت تدور على الحواري، وتلم النسوان، يلطمن ويصوتن، ثم سارت وسطهن جميعا، حتى وصلت لسكة الجنازة في الشارع العمومي الكبير، وهناك رأت زينات خلقا كثيرا، كأنها في يوم الحشر، فحوقلت، وعرفت ان الرئيس كان عزيزا وغاليا، عند عيال ونسوان وجدعان كثيرين، فصعب عليها اكثر، وبقيت تشهق وتنهنه كما الصغار، وترجع تصوت وتندب وتقول: «يا خسارة شبابك يا عيني»، «اتخطفت قبل الاوان يا امير»، «الف رحمة تروح لك يا حبيبنا كلنا، يا حبيب الدنيا كلها».

ثم فجأة تذكرت الخطاب والمعاش، وحاولت تصور ما سيكون من امرهما بعد ذلك، ولما اعياها الفكر السريع، ولم تصل الى تصور معقول للموضوع، اهتاجت وتركت النسوان، واخذت تركض باتجاه النعش، بينما تتخابطها الاكتاف والايدي والرؤوس، كانت قد قررت ان تلقي نظرة عليه عن قرب، وان تلامسه بيدها، وعندما كان النعش يكبر في عينيها اكثر واكثر، وتتضح ملامحه، وتدرك انها اقتربت كثيرا، فترمي بنفسها، وسط الناس بقوة، وتدفع هذا وذاك غير عابئة بما يمكن ان يجري لها، وعندما اصبحت قاب قوسين او ادنى من النعش، بدأت الايدي تمتد اليها، باللطمات لتمنعها، لكنها كانت تعاود الاقتراب، مرة اخرى، فيمنعوها،

ثم فجأة شعرت بطعم الدم المالح على شفتيها، واحست بانها فقدت انفها تماما.

الجنون الذي انتاب زينات، هذه اللحظة، يقول البعض انه حقيقي، اما هي فتقول، عندما تستعيد هذه اللحظات، وتتجمد في عينيها نظرة حزينة هادئة، انها كانت ساعتها قد تذكرت طوال انتظارها يوم موكبه، بعد صلاة الجمعة، وما جرى لها وقتها، لذلك وبدون شعور منها راحت ترد على اللكمات والضرب، الموجه لها، بضربات اقوى، كما انها غرزت اسنانها في الذين ضربوها قدر استطاعتها.

اما في محضر القسم، الذي حرروه لها، فقد قالت انها عضت الرجل السمين، ابو قميص ابيض حرير، في يده، لانها شعرت انه يبتسم في الجنازة، وانها نظرت الى وجهه عندما رمى بعصاه صورة الرئيس، التي كانت تحملها، فرأته ينظر ناخيتها ويبتسم.

زينات، التي ما فتئت تردد، بينها وبين نفسها، «دنيا غرورة وكذابة» يقال، انها بعد تحرير هذا المحضر لها بسنوات في القسم، احتجزت لأيام في قسم آخر بوليس، بسبب اشتراكها في الهوجة، التي جرت وقتما رفعت الحكومة ثمن العيش، وانها كانت تردد وقتها: «الف رحمة تروح لك يا حبيب الناس كلها». بالاضافة الى كلام كثير لا داعي لذكره هنا.







أم شحتة التي تجردت الموضوع

بعد مرور أسبوع على تلك الحوادث الفظيعة، جلست، أم شحتة، كعادتها، ظهيرة يوم شتوي مشمس، تغمس مشطها العظمي، لمتبقي من أيام زفافها، في كيروسين علبة السالمون الفارغة، وتسلك شعرها، بحثا عن قملة غريبة تسللت إليه من هنا أو هناك.

رمقت ديكها الاحمر الصياح فخوراً بدفء الشمس، وأصابعها تحيل الخصلات الجافة جديلتين صغيرتين، وفكرت متوجسة: «ترى.. هل سيتركونه يعود من القشلاق هذا الخميس؟».

أما هو، حسين دياب، فكان هذه الاثناء جالساً في غرفة التحقيق، يقرأ ما أدلى به من أقوال، ويفكر مشحوناً بأحداث الاسبوع الفائت، تضايقه رائحة غياره الداخلي الملوث بآثار احتلامه في الليلة الماضية، يمرر أصابعه على وجهه، متحسساً التضاريس المستجدة على صفحته، التي تركها المخبرون عليه بميدان رمسيس وحجز الشرابيه، أثناء وبعد الحوادث، كهدية بسيطة تؤكد أن الشرطة في خدمة الشعب. وكان يحاول، من قراءته للسطور، استنتاج الصورة التي سيكون عليها قرار اتهامه، بعد أن استنطقوه ثلاثة أيام بلياليها.

والحقيقة، أن حسين دياب كان كمن آفاق لتوه من حلم غريب، لم يتيقن واقعية ما يدور حوله بعد، فصور القبضات العنيفة المضمومة في غضب، وألسنة الحرائق المندلعة في القطارات، والمحلات، والدكاكين المستباحة تمر برأسه كشريط سينمائي طويل، وتختلط بسطور استجوابه، وكان مشهد النسوة المتشحات بالسواد، كقطيع ضخم من عجول البحر، وهن يزعقن ويصرخن، يأتيه بقوة لا يفوقها إلا قوة صوتها هي، تلك المرأة التي ألهبت أفكاره على نحو لم تفعله أية امرأة اخرى من قبل، وكانت بالنسبة له، في تلك اللحظات، بمثابة اكتشاف مذهل مفاجىء، لا يمكن توقعه أبداً، وهو الذي يعرفها جيداً، منذ سكن الحارة، ولم يكن يتوقع وهو الذي تعودها كانسة، غاسلة للملابس، بائعة للبيض، ومجالسة للنسوان على عتبات البيوت، ان تكون على هذه الصورة، والحال، اللذين كانت عليهما اثناء الحوادث. تتألق في الشوارع، وتطلق من حنجرتها الجديدية صواريخ مدوية، تتبدد وتضيع فيها أصوات الجميع. . . جميع من كانوا وقتها هناك من سكان الوادي، الذين تجمعوا حولها من الحارات والدروب الكثيرة. وبرغم محاولاته المتكررة لشحذ كل طاقاته الصوتية ـ هكذا يذكر الآن ـ لكي تخرج كلماته قوية واضحة، فان صوتها ظل هو الاقوى، حتى في اللحظة التي تصور فيها ان الجميع سيرددون وراءه «لم كلابك يانبوي» عندما بدأت عساكر الداخلية بالهجوم، لكنه لم يسمع غير زئير واحد، يسيطر على جميع الانحاء، يردد هتافها «قوم ياوحش، شوف الجحش، بيعمل إيه».

لا، لم يقم بالتحريض مثلما ظنوا. لقد حاول، ولكنه فشل. وهو يعترف لنفسه، في هذه اللحظات، أنها هي التي خططت ونجحت في لم الناس، وهي التي ذهبت بهم هنا وهناك، بلحمها وشحمها الكثيرين، رغم ما يعتري قدميها من أوجاع تعاودها، ويعرف جيداً أنها تحيلها، أياماً طوالاً، جثة هامدة لا تقوى على مبارحة فراشها. لقد صدمته، في اليوم المشهود،

بعنفوانها وقوتها الرهيبة، حتى انه يظن الآن ان الآلام في كتفه اليسرى سببها لكزتها السريعة، عندما اوشك هجوم الأمن المركزي، لتشير عليه بالهرب قائلة: «ارجع انت يا مضروب». إنه يتذكر الآن، أثناء قراءته لسطور اتهامه، نظراتها القوية المشفقة، التي قرأ معناها جيداً، وأشعرته بالغربة وسط تلك الجموع المتدفقة. «ثمة خطأ في المسألة!» هكذا فكر، وأخذ يهز فخذيه هزات عصبية خفيفة، «كان من الاحرى ان تكون هي في هذا المكان بدلاً مني».

- ٢ -

فكرت وهي تدس اصابعها في مؤخرة العتيقة البياضة، التي حاصرتها في زاوية غرفته، أن «المضروب» طال حبسه اكثر مما يجب: «ضربوه، أمر مفروغ منه، ولكن لماذا استبقوه حتى الآن؟».

تطلعت في كتبه وأشيائه المبعثرة في أنحاء الغرفة، وأخذت تمسح، بوريقة مهترئة، الكتب والكراسات، التي برقشتها الفضلات الطرية لدجاجاتها، وترفعها لتضعها على مكتبه برفق. تأملت ماوتسي تونغ، المنكب على وجهه بين صفحات مختاراته، ودققت فيه قليلاً، وتهيأ لها أنه يشبه المرحوم أبو شحتة، تحسرت وترحمت، وأعلنت لنفسها «يخلق من الشبه أربعين». لكنها ظلت حائرة، لماذا جاؤوه. بهذا العدد الكبير من العسكر في «البوكس»؟! لماذا فتشوا غرفته «المخروبة» على هذا النحو الدقيق، كمن يبحث عن ابرة في كومة من رمال؟!، وخطر لها خاطر: «يمكن المضروب بيشتغل في الحشيش؟». والا لماذا «تكبسه» الحكومة بكل هؤلاء العسكر آخر الليل؟!. لكن هذه الفكرة تبخرت من دماغها سريعاً، فهي تعرفه، تعرف «المضروب» حسين دياب معرفتها لضناها، ونور عينيها، شحته، وتعرف انه قطة مغمضة لا حول له ولا هم إلا مذاكرته

وكتبه. لعنت الحكومة و«البوليس»، لتدخلهم في كل كبيرة وصغيرة في حياة الناس، وحبسهم لحسين الغلبان، بصوت لم يسمعه إلا الديك المنتظر قريباً منها، بينما كانت تهش الدجاجات بعيداً حتى تغلق باب الحجرة بورقة حشرتها بينه وبين الافريز.

والحقيقة أن أم شحتة، منذ بداية الحوادث، وحتى هذه اللحظات، حيرها امر حسين دياب، كلما فكرت به، وظنت انها لم تكن تعرفه ابداً، وهي التي كانت تراه ذاهباً، كل يوم، من حجرته الى الجامعة، ومنها الى حجرته، يحييها كلما عبر ببابها، ويطلب منها أن تغسل ملابسه، وتنظف حجرته، ولقد ادهشها اصراره على متابعة السير معهم ساعة «الهوجة» واهتمامه المفاجىء بالموضوع، كما لو كان يخصه هو، وهو «العيل»، المعتمد على أبيه في أكله ودخانه ومصروفه، الذي يزيد في الشهر على ما يعطيه الجيش لشحتة، وما تبيعه هي من بيض، ولم تكن تتوقع ان الامر يعنيه مثلما يعنيها، وهي التي ضاقت الدنيا في وجهها، بعد ان ظلت تفكر وتحسب، وتعيد الحسبة بلا جدوى، لتدبر المعيشة، بعد ان مست نار الغلاء كل شيء، وجرت فيه الجارية، حتى الخبز والارز، قوت أيامها، طالته النار، فبكرت، وجرت لسحتوت البقال تشتكي اليه، وترجوه ان يتصرف، ويسأل الحكومة والتموين عن حل للموضوع.

ـ ٣ ـ

صحا من نومه على زعيقها في الحارة، اخترق صوتها الجهوري أذنيه، كما النفير، تصور أولاً انه يحلم، لكنه سرعان ما اكتشفها، هي، أم شحتة، بصوتها «الكونترباصي» الرهيب، تعلن: أن «العيشة صارت مرة، ودين النبي مرة». كانت كنمرة جائعة اطلقت من قفص بعد حبس طويل، لا تتوقف عن الشتائم والسباب، والدعاء على الحكومة ورئيسها،

والتمـوين، و«البـوليس»، وكل من لف لفهم، دعوات حارة ظنت أنها ستصل السماء. قفز من سريره، ونظر من شباك غرفته العالي المطل على الحـارة، حيث كانت واقفـة عنـد سحتوت البقال، ورآها وحولها لمة من النسوان والعيال، وسحتوت نفسه يقف أمامها بلا حراك، كمذنب متهم ما انفكت تستجوبه، وتوجه له الأسئلة، هازئة من موقفه المتخاذل، مشيرة للحيته: «مؤمن لا يعرف الدين، مؤمن لا يعرف الحق والرحمة، مؤمن ولا يقف في وجه الباطل».

ظل هو من موقعه يرقب «الهيصة» دون ان يفهم شيئاً من الموضوع، فصوتها، وهي تصيح: «رغيف الخبز بقرشين؟! والله حرام يا سحتوت»، يختلط بصوت سحتوت، الذي أخذ يقول: «مثلي مثلك، لا أعرف شيئاً عن الموضوع»، معلناً تبرمه وضيقه من اللمة التي صارت على الريق، قبل الاستفتـاح. لكن ام شحتـة تعلن قراراً مهـماً؟ ستـذهـب الى مكتب التموين، ستتكلم مع الحكومة، وتطلب من موظفيها ان يتصرفوا في الموضوع.

عاد ليستكمل النوم اللذيذ، الذي ما يزال يدغدغ اوصاله، صباح ذلك اليوم الشتـوي البـارد من شهر يناير. كانت صورتها وهي تغادر الحارة، بجلبابها الاسود، وطرحتها المحكمة حول رأسها، ووراءها جمع من عيال ونسوان الحارة يلوحون بقبضاتهم في غضب، يجيئه في حلمه، كغيمة سوداء ضخمة ناءت بحملها العواصف. ولم يستيقظ من نومه إلا وقت الظهر، عندما هب مذعوراً، لانه ظن ان القيامة قد قامت.

— ٤ —

طوال «سـكّتهـا» الى شارع عشرة، حيث مكتب التمـوين، كانت تتحدث مع نفسها، ومع الناس بصوت مرتفع، يسمعه الرائح والغادي،

وكانت تتوقف أحياناً لتلتقط انفاسها، فالمشوار طويل، وخطواتها ثقيلة، لكنها تسير، وستصل، كما كانت تقول للذين استوقفوها وأشاروا عليها بالعودة. ووقف معها الذين جذبتهم اللَّمَّة، ولم يكونوا قد عرفوا الأخبار بعد، حيث الوقت ما زال باكراً، ولم تكف عن اعلان: «البلد خربت، سنموت قريباً من الجوع»، لاولئك الذين فتحوا شبابيك دورهم مدهوشين. قالت رأيها بوضوح، منظرة للموقف: «ناس هايصة، وناس لايصة، انظروا راكبي السيارات، انظروا الذين يقيمون الافراح والليالي الملاح، ويعلقون الكهارب بألف لمبة وأكثر، انظروا للذين يأكلون كل يوم فتاء محلولة، ونحن ننام على الجوع؟!، انظروا نسوان السينما والتلفزيون؟! انظروا امرأته، أقول لكم انظروا امرأته، كيف تلبس، وكيف تخرج، وسيرتها على كل لسان؟! تقول ذلك، والناس حولها يتحسرون على حالهم، ويؤمنون على كلامها، ويزيدون من عندهم تفاصيل أخرى عديدة.

جلست على الرصيف تريح قدميها المتعبتين، تدلك بطة ساقها اليسرى التي تشنجت، وتعيد إحكام طرحتها على رأسها، ودموعها تطفر غيظاً وحقداً. كان الجمع الصغير قد بدأ في التزايد الى الحد الذي وصل فيه لبضع مئات، برغم الصباح الشتوي الباكر، وبرودته المؤلمة، وسرعان ما توجه الجميع بخطى واثقة الى مكتب التموين.

ـ ٥ ـ

«لم أذهب الى مكتب التموين». ارتاح لأنه أدلى للتحقيق بهذه الحقيقة، التي يعرفها مثلما يعرف حقيقة ذهابها الى هناك، فلقد انتزعته لدى عودتها من احلامه، واستيقظ على صوتها يلعلع: «ابن الكلب... بعد ساعتين من وقوفنا في انتظاره، جاء ليقول لنا من طرف أنفه ان لا علاقة له بالموضوع؟! تكلم ببرودتيس، كما لو كنا عبيد أبيه»، «جسمي تكسر من التعب، والله ياناس تعبت، قمت من البدرية، قبل ان تطير الشمس

الندى، وانتظرت كل هذا الوقت. . ليقول لنا. . . ابن الحرام. . لا علاقة له بالموضوع». ثم فجأة اطلقت صوتاً ممتداً، انتشر في انحاء الحارة، وأخذت تلطم وتولول: «يا خرابي، يا خرابي ياناس»، هنا بدأ هاتف يهتف بداخله: «جاء وقتك يا حسين دياب، حان وقت العمل، الجماهير في ثورة، وهي في حاجة اليك، فهلم لقيادتها، قل لهم كل الحقيقة، حدثهم عن الصراع الطبقي، والتغلغل الرأسمالي، ودور البروليتاريا، وما يحدث في البلد الآن، قل لهم لماذا الفقراء فقراء، والاغنياء اغنياء، ولا تنس ان تربط ذلك بالمسألة الوطنية، وقضية الاحتلال، ودور الاميركان في المنطقة.».

قرر ان يحدثهم بأشياء اخرى كثيرة، وفكر ان لغته معهم يجب ان تكون سهلة، وكلماته بسيطة يفهمها الجميع، ويمس من خلالها الموضوعات الرئيسية. لكن ام شحتة لم تمهله حتى ينهي تبوله، ويرتدي قميصه وبنطاله، ليقول ما عنده، فلقد قررت الذهاب الى المديرية والمحافظة، للتكلم مع الموظفين الكبار في الحكومة، الذين لا بد أن ينهوا الموضوع، فالذي حدث لم يكن من المتصور حدوثه أبداً.

ها هو يقرأ اعترافه المثبت في محضر التحقيق. لقد ذهب معهم الى المديرية بالفعل، لكنه كان واحداً مثل كل الآخرين، محض فرد مشارك، فهي لم تفسح له في المجال ليتكلم، وكانت تصيح صارخة، بين الحين والحين، ومن خلفها كل الذين كانوا معها «يا خرابي يا عرابي»، كما انها هي التي بصقت أولاً على عساكر «البوليس»، ولعنت اصحاب المحلات الكبيرة، ذات الواجهات الزجاجية اللامعة، ولم تتوان عن استخدام اصابعها وساعدها برسم إشارات وحركات بذيئة لراكبي السيارات «الملاكي»، الذين اخرجوا رؤوسهم من نوافذها، ينظرون بدهشة، وهي التي كانت تختار الازقة والحارات، لتلم الناس وتجمعهم في طريقها الى المديرية . اما هو فلم يكن إلا فرداً، عليه ان يعترف، محض فرد بسيط يسير وراءها مثلما يسير الآخرون.

ـ ٦ ـ

قالت لجارتها الصغيرة، التي رافقتها لتبيع البيضات الثلاثين، التي نفحتها بهم البياضة واخواتها، وتشتري لحم الرأس الذي يحبه شحتة: «لو تركوا الغلبان هذا النهار، وكان له نصيب، فسأعشيه مع شحتة، فهو غريب عن مصر، أهله فلاحون من طنطا، شيء لله يا سيدي السيد. . . ولكن في بالك، هل سيتركونه؟.

تنهدت الصبية، المكتوي قلبها بغرام حسين دياب الميؤوس منه، «يتركونه او لا يتركونه، ماذا تستطيع هي ان تفعل؟! لقد حاولت اكثر من مرة ان تلفت نظره، وتعمدت ان تطلق شعرها، وهي تنشر الغسيل على السطح، ولكنه كان يجلس داخل غرفته لا يرفع بصره عن الكتاب، حتى عندما غنت بغنج «جميل واسمر»، لم يكلف خاطره الالتفات بنظره واحدة اليها، وهي التي ترتدي القمطة والجلباب».

لم ترد البنت المشدودة للواجهات الزجاجية، التي تتكدس فيها الفساتين الملونة، ومساحيق التجميل، والحلي الزائفة، لكنها قالت فجأة: «ولماذا تبقيه الحكومة عندها؟! سيكلفها اكل وشرب ونوم؟! غداً تتركه لحال سبيله».

لكن أم شحتة، باتت لديها قناعة خفيه بأن الحكومة لن تتركه لحالة، طاف برأسها هذا الهاجس، وهي تتذكر ملاحقة المخبرين له اثناء «الهوجة»، كانوا يحيطونه من كل جانب، ويتابعون خطواته، وهي نفسها قالت له اكثر من مرة: «ارجع انت يا حسين»، لكنه لم يرعو، ولم يستمع الى قولها. بصقت على الارض مغتاظة، وقالت لحالها: «غريبة والله هذه الحكاية!».

— ٧ —

أوشك ان يطلق ضحكة عالية، وهو يتذكر الذهاب للمحافظة، لقد ذهب معها، وظل الى جانبها لحظة بلحظة، لكنه يعرف جيداً ان وجوده مثل عدمه، وهذا ما لم يفهموه أبداً في التحقيق. كان كالبرعم الصغير أمام شجرة عتيقة، حتى انه لم يستطع ان يقول شيئاً للمحافظ، عندما خرج ليواجه الجموع المحتشدة، وفجرت هي كل ما تفجر، عدما يئست من كلام الرجل الذي وقف في شرفة المبنى، وسط بطانة من اموظفين، ليقول عبارات لم تعجبها، فردت عليه باختصار من فتحتي انفها الضخم: «قال سينظر في الموضوع!.. وعودوا لبيوتكم الآن، افضل لكم؟!» وكررت كلماته محاولة تقليد صوته، هازئة منه، ومن كرشه، وعويناته السوداء لاعنة آباءه وجدوده، وقررت العودة، ليس الى البيوت الفقيرة التي اشار اليها المحافظ، والتي « لا يعرف منظرها، ولا ما يدور في داخلها» كما قالت؛ ولكن الى الشوارع والطرقات الفسيحة، التي امضت فيها مع الآخرين النهار بطوله، واليوم التالي، ففي البداية لوحت ساعدها المتين في حركات مبهمة، رافضة، فهمها الجميع، وبدت فيها كمن يقص شريط الافتتاح لمشروع ضخم، فهجموا، مداهمين كل الاماكن والمحلات، التي ما كانوا يحلمون يوماً بولوجها قط، كقطيع وحشي سرت فيه حمى غريبة، ولم تمض ساعات، الا وكانت الواجهات الفخمة المتتالية، وما خلفها، في خبر كان، حتى محلات الالعاب الرياضية، والادوات الطبية، والآلات الموسيقية، باتت عارية كأرض حطت عليها جحافل الجراد في هجوم مفاجىء ولقد شاهدها بأم عينه، هو، حسين دياب، تخرج من «جروبي سليمان» وهي تعض بأسنانها قطعة «جاتوه» ضخمة وتمسك بيديها فنينة «بلاك اندوايت» موشومة، حتى انه كاد ينقلب على ظهره من الضحك، برغم كل تفاصيل ذلك اليوم العصيب، عندما رآها، بجلبابها الاسود وطرحتها المتهدلة على

كتفيها، حاسرة الرأس، تفتح الزجاجة، تعب جرعة كبيرة منها، وتسارع بافراغها على الارض، بعدما اكتشفت ان مذاقها حاد، وليس حلواً كما ظنت.

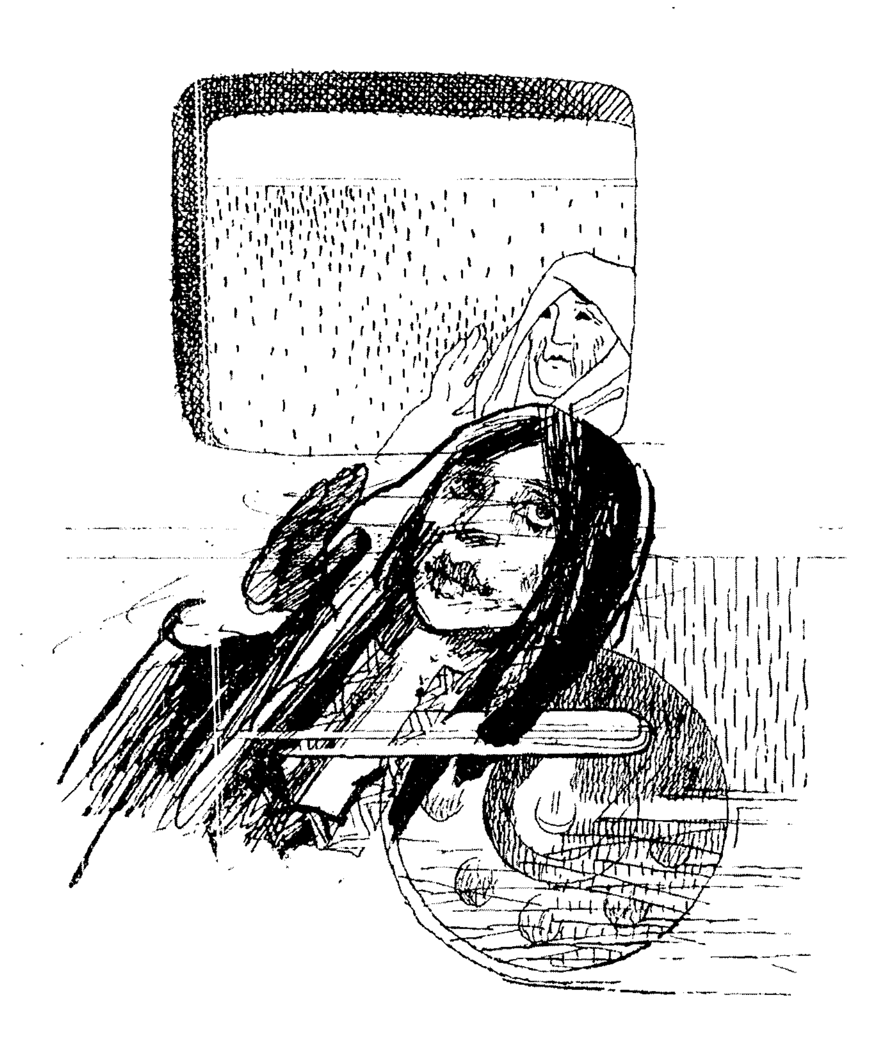
حاول ان يركز ذهنه، ليستكمل قراءة السطور، متهرباً من شريط الحوادث الذي ما انفك يعبر رأسه، ويطن فيه كزنبور نحل، حتى يتبين الثغرات، ومواطن الضعف في استجوابه، ليتمكن من تقديم دفاع جيد في المحكمة. كان يعتقد ان حادث القسم هو مسمار جحا الذي سيدقونه في قرار الادانة، برغم نفيه المتكرر لمشاركته فيه، لقد تمنى في قرارة نفسه، مرات ومرات، ان لو كان وقتها هناك، مشاركاً فيه، فهو من أبرز الحوادث التي وقعت وأطرفها، والفكرة الشيطانية التي نبتت في رأس أم شحتة، لم يكن من الممكن ان تخطر بباله أبداً، وقد جن جنونه إعجاباً بها، عندما حكت لأهل الحارة تفاصيلها فيما بعد، لأول مرة. كان يظن ان الوقت ما يزال مبكراً على مثل تلك الامور، والاساليب، «فهذه الجماهير العزلاء البسيطة» والمطحونة، التي لا يمكن ان تواجه العصابات المنظمة، الممثلة لمصالح الدولة، المعبرة عن الطبقة المهيمنة، فهي ما زالت محدودة الوعي، ولم تنتظم بعد في أشكال، واطر سياسية، تخوض من خلالها نضالات حقيقية». ولكن ام شحتة فعلتها، فخططت لهجوم مضاد على قسم الشرابية، بينما كان يبيت عند زميله حسني عبد المجيد، واستطاعت ان تفاوض ثابت الحانوتي على نعش قديم، ملأته مع الاولاد بالطوب والحجارة، وغطته بملاءة نزعتها عن فرشتها البالية، وحمله الرجال، وساروا به في الدروب مكبرين موحدين: «الله اكبر، لا اله الاالله»، والنسوان خلفهم يبكين، ويلطمن خدودهن حتى بلغ الموكب باب القسم، فألقوا بالميت المزعوم ارضاً، وفتحوا النعش، ليطيروا وابلا من الحجارة، على مبنى القسم ومن فيه. كانت مباغتة ما بعدها مباغتة، وخدعة ما بعدها خدعة اسفرت عن «بطح» ضابط بنسر، في رأسه، وثلة من عساكر القسم ومخبريه. ولقد اقسمت له ام شحتة، بسرور وانبساط، انها رأت المأمور

«شخصياً» يبول على نفسه من الخوف، وهو يجري محاولاً الاختباء. كما رددت بتلذذ، لكل الذين وقفوا يسمعون القصة، ومنهم هو، حسين دياب، كيف استطاع المهاجمون جميعاً، أن يفروا قبل أن يفيق رجال القسم من عنف الصدمة، ويبدأوا بفتح النار، وقاطعها عباس «الصرماتي» قائلاً، أنها كانت تطير في الدروب والحواري، كرخ خرافي، هاربة بمن معها، وأضاف انها جرت جري العفاريت الزرق، وأقسم انه لن يصدقها، بعد تلك الواقعة، اذا ما اشتكت من آلام قدميها.

ما أذهل حسين دياب، من وقتها، وحتى هذه اللحظة، التي يجلس فيها بغرفة التحقيق هو البساطة الشديدة التي تمت بها العملية، والنجاح الذي كللت به، حيث لم تسفر عن خسائر تذكر، ماعدا فقدان «زنوبة» رزّة ابن عباس الصرماتي، بعد ان انخلعت من قدمه اثناء الهرب، ولم يتسن له انتعالها مرة اخرى، والخوف والرعب اللذين اصابا جميع من في القسم. والذي يذهله أكثر، الآن، هو اختفاء ام شحتة ليلة كاملة بعد الحوادث، عرف منها فيما بعد أنها قضتها عند اختها في قرية بالجيزة، وعدم عودتها الا بعد تيقنها من هدوء العاصفة، وهذا ما لم يفطن اليه هو، فنام مطمئناً في حجرته، يقرأ ويفكر، محاولاً تدبر ما حدث، وما يمكن حدوثه بعد ذلك، ليجيئوا ويأخذوه بعد ثلاثة ايام من هدوء الاحوال، بعد ان فتشوا حجرته، وهي نائمة في حجرتها، يسمع شخيرها، ولم تستفق، وهي صاحبة النوم الثقيل لكثرة ما تلتهم من فحول البصل، الا بعد ان اخذوه، ولقد وصله صراخها، وعويلها عليه، عندما كانت السيارة تبتعد عن الحارة، في طريقها الى «اللاظوغلي».

كان قد أتى على سطور التحقيق كلها. فكر قليلاً قبل ان يوقع. همّ بإضافة عبارة «أم شحتة التي فجرت الموضوع»، لكنه اكتفى بكتابة اسمه، فقط، حسين دياب.







بسمة الموت

ـ ١ ـ

وقفت في مكانٍ متسمرة على الرصيف، والابتسامة الغريبة على الوجه تتضاءل شيئاً فشيئاً مع حركة القطار المتزايدة، الابتسامة التي لم ارها طوال عشر سنوات للحظة... لا بل لأقل من المليون من اللحظة، لزمن لا يحسب بأبسط وحدات الزمن.... خلت أني احلم، امباني والناس والقطارات والنبتة الخضراء الوحيدة في اصيصها على الرصيف... كلها فقدت وجودها المألوف... وأحسست باحساس لم أشعر به من قبل، غير تلك المرة البعيدة، التي أجريت لي فيها جراحة اللوزتين.. وأنا أعد الرقم الرابع بعد حقنة البنج.

رفعت يدي... تحسست ملامح وجهي... سألت عابراً امامي عن الوقت، كنت أحاول التشبث بالزمان والمكان.. مرت أمامي العربة الاخيرة للقطار... تحولت الابتسامة التي اراها للمرة الأولى منذ عشر سنوات، والكف المرفوعة بالتحية الى نقطة صغيرة سوداء... تتلاشى. آه... لقد رحلت خالتي أم سامية.

عرفت الخالة أم سامية منذ حوالي عشر سنوات، سامية ابنتها وأنا . . . تزاملنا منذ بداية مرحلة الدراسة الاعدادية، كانت الايام تتوالى، ويزداد معها حبي وتعلقي بها، وكنت معها ـ ولا أدري كيف ـ أشعر بقوة تملؤني وباطمئنان نفسي، ولقد كنت في البداية أكرهها، غاظني منها ضحكها الدائم . . . وسخريتها العارمة من كافة الاشياء، مرة شبهتني بالارنب بوجود البنات، غضبت وبكيت بحرقة، ولكنها سرعان ما اعتذرت لي دون ان تقتنع بذلك، وهي تسألني بدهشه: وهل مثل هذه الاشياء تدعو للغضب!؟ . . . وأيضاً البكاء؟!! سامية . . دمها خفيف جدا هذا ما اظن انه حببني فيها دائما، كانت جذابة ذات مظهر وقور لاينم عن شخصيتها أبدا، ولكن عندما تبدأ في الكلام ويرتفع حاجباها، ويتمدد أنفها الطويل حتى لتظن انه سيسقط في فمها، عندما يحدث ذلك تتحول رؤية الاشياء في عيني وفي عيون جميع من حولها، انها تحول البشر الى طيور وحيوانات، وتسبغ على الحيوانات صفات آدمية، كانت تسخر من الناس ومن نفسها ومن الاشياء دون ان يستطيع احد مقاومة هزلها فلا يضحك . . . ولن انسى يوم حضرت الى فصلنا ناظرة المدرسة بصحبة المفتشة . . عندما سألتنا عن الادوية المطلوبة في صيدلية المدرسة، تحمست سامية كعادتها وركزت عينيها في عيني المدرسة، وأجابت بوقار:
ـ حبوب منع الحمل.

للحظة ساد الصمت، ولكن سرعان ما اندلعت ضحكات حقيقية بدأت من عند المفتشة والناظرة واستشرت حتى وصلت الى المدرسة التي كانت واقفة في آخر الفصل . . . وخرجت المفتشة يومها وهي تضحك بينما جلست سامية في هدوء وهي تسعل.

بعد ذلك بايام، سحبتني سامية من يدي بعد انتهاء اليوم الدراسي حتى

وصلنا الى أمها في المطبخ ، كانت واقفة تنظر من النافذة ، بينما يموج مرق في وعائه فوق الموقد. . . استدارت على ضجيج سامية وهي تعلن لها عن حضوري. . . مسحتني بنظرة انتهت في بؤرة عيني وقالت:
ـ أهلاً يا ابنتي.

لم تزد. . . بينما كانت سامية تحدث ضجيجها وراحت تذكرها بكلامها عني وتقول، ـ أتذكرين. . . تلك التي كانت تساعدني بالكتب الخارجية في العام الماضي. . وغششتني في امتحان العربي، ولولاها لكنت رسبت، ألم اكلمك عنها من قبل؟ . . . ألا تتذكرين؟!!. منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها أمها. . . كانت تخلف عندي الدهشة دائماً، ورغم السنوات العشر التي مرت، فما أظنني قد عرفتها أبدا، هكذا فعلت في ذلك اليوم ـ ودائما كانت تفعل ـ اقتربت مني وأخذتني في حضنها، وانحنت حتى لامست منبت الشعر الفضي في جبهتها والذي لم أر من شعرها الملفوف في طرحتها السوداء غيره طوال عشر سنوات. وقبلتني في خدي بحب وبكت.

ـ ٣ ـ

في الشتاء. . . في الصيف. . عبر كل الشهور. . . كنا نجلس دائماً جلستنا الثلاثية هذه هي على الكنبة الاستامبولي القديمة الموضوعة تحت النافذة عينها مرة على شغل الكيروشية الذي بيدها، ومرة على الشارع الهادىء الذي قلما يعبره عابر وسامية وأنا في الناحية الاخرى من الحجرة نجلس بجوار المكتب. . . نذاكر دروسنا أو نثرثر، سامية تلقي نكات وأنا أضحك. . . وهي لا تتحدث أبداً ولا تشاركنا الحديث أو حتى تبتسم لنكات سامية، فقط من حين الاخر كانت تباعد بين حديثنا قائلة:
ـ سأصنع شايا.
او تنبهنا:
ـ استعدوا للأكل.

ما عدا ذلك، لا اذكرها متكلمة قط، وما رأيت من شعرها غير المنبت الفضي اللامع يتوسط اعلى الجبهة، والذي يبدو من طرحتها السوداء كنجمة مشعة وحيدة في ليلة حالكة... أذكر مرة بعيدة ذهبت فيها لسامية لتغيبها عن المدرسة يومين، وعندما دقت الباب فتحت لي هي، وطالعتني عيناها والدمع يتساقط منهما على يدي التي تعانق يدها وقالت:

ـ بوسي ولدت امبارح ثلاثة!!

ـ ٤ ـ

آه... نسيت ان احكي لكم عن بوسي... انها العضو الثالث في أسرة صديقتي سامية... التقطتها أمها يوما وهي قطيطة صغيرة من على الطريق، عندما كانت عائدة من السوق، ومن يومها ولبوسي حياتها المستقرة في البيت، لها طبق طعامها الخاص، وفراشها، وعندما تغيب في مواسم الاخصاب من حين لآخر لتلبي مطالب الجسد... يدب القلق في البيت، ولو غابت اكثر من ذلك تذهب ام سامية وتسأل عنها الجيران، وكثيراً ما كانت سامية تتندر على عشاقها من القطط الذين يبيتون أياما في الصقيع على سلم البيت يناجون معبودتهم بوسى.

وكانت تجلس على فخذي خالتي ام سامية تحت النافذة، فتداعبها وتمسح لها على رأسها، فتحركه القطة اللعوب بدلال... أو ترمي لها بكرات الخيط لتلعب بها وتخفيها تحت الكراسي وتعود بها.

وفي إحدى المرات... ذهبت اليهم، فطالعتني والقطة على صدرها، وهي تحتضنها وتربت عليها، ودموعها تتسابق على خدها في امتنان وهي تقول:

ـ بوسي فيها بركة وفدت سامية، وقع اناء الشاي المغلي، ولو لم تكن بوسى موجودة بجوارها لوقع عليها وأحرقها، بوسي فيها بركة.

تأملت فراء القطة المبتل. فقط كانت تنتفض من البرد وتلحس شعرها في ضيق من لحقت بجسده أقذار.

ـ ٥ ـ

المرة الوحيدة التي اصطحبت فيها أمي الى بيت ام سامية كانت من سنوات. كانت ام سامية تصنع أشغال الابرة للناس مقابل نقود تسند بها معاشهم القليل.. يومها ارادت امي ان تحيك وشاحا، وكنت معيدة لأنها ستتعرف على أم سامية، وعندما جلسنا سويا على الكنبة، راحت امي تحكي لها عنا: أبي واخوتي وأنا، وهي صامتة تستمع ولا تترك الابرة والخيط من يدها، ولا تكف عن النظر الى الشارع بين الحين والحين كعادتها، وعندما حكت أمي عن موت أبي المفاجىء بالسكتة منذ خمسة وعشرين عاماً، عند ذلك... اقتربت الخطوط الدقيقة بين حاجيتها وتلاصقت، وتذبذت شفتاها الرقيقتان في حركات سريعة متلاحقة... واستقمت أرنبة الانف الذي يشبه أنف سامية تماما... وسقطت دموع... دموع.

ـ ٦ ـ

منذ عرفت بيت سامية، لا أذكر انه قد مر يوم عيد دون ان ازورهم، في الصيف او الشتاء... بعد العصر دائما، كنت ارتدي ثوبي الجديد واحمل صندوق الكعك الصغير، وفي الطريق اشتري قطعة شيكولاته لسامية و «بمب» لافزعها به، وأذهب... وعندما أرى أمها تجلس تحت النافذة، أتقدم منها وأقول لها كل سنة وانت طيبة يا خالتي... كانت ترد المعايدة، وهي تأخذني في حضنها، وتشير الى ثوبي الجديد بالاعجاب، وتقبلني في فمي... ولا زلت أذكر مذاق ملح دموعها على شفتي.

ـ ٧ ـ

لا أنتظر حتى أصعد درجات السلم.. ازعق بمجرد دخولي الى فناء

المنزل الصغير. سامية نجحت. . . . سامية نجحت. . . هذه المرة أدفع الباب الموارب بلا استئذان. . . ادخل اليها وهي واقفة مبتلة الثياب أمام الحوض. ... اضرب الارض بقدمي وازعق. . . نجحنا. . . نجحنا . . . سامية نجحت، تجفف يديها من الماء والصابون في جلبابها بسرعة. . . لا تبتسم. . . لا تضحك. . . لا تتكلم، الدموع المتأهبة للفرار تفارق المقلتين، وتنداح على الخدين مدرارة بلا زمام. . أقول لها في هدوء.

ـ مبروك يا خالتي.

ـ ٨ ـ

منذ عام تخرجنا أنا وسامية.

هي مدرسة بالريف. . . تذهب الى القرية، وتعود الى بيتها مرتين في الاسبوع، وأنا موظفة بالحكومة، أحمل نفسي مرة كل صباح الى الطرف الاخر من المدينة وأعود عند الظهر، ولا يمر يوم دون ان اذهب لخالتي ام سامية، اطل عليها وأسألها ان كانت تريد شيئا، واحكي لها عما حدث لي طوال اليوم، وعن مشاكل العمل، وأحيانا كنت استأذن امي في المبيت معها في الايام التي كانت تغيب فيها سامية بمدرستها البعيدة، ونظل ساهرتين، لا نكف، هي، عن الامساك بالابرة، بينما أنا اقرأ كتابا او مجلة وأحكي لها عن العرسان الذين يطلبون يدي، وعن ابن خالتي الذي رأى سامية مرة عندنا ويريد ان يتزوجها، وهي لا توافق لان شكله كحمار عربة الزبالة. . . كنت أقول لها ذلك واضحك وأنا اتخيل منظره، أما هي فتنظر لي بين الحين والحين وتتأملني والدموع تبلل عينيها، وتدعو لنا بالتوفيق.

ـ ٩ ـ

أظن اني لا أستطيع ان أحكي التفاصيل الآن، وهي لا تهم بعد ذلك؟

ولا ادري أآسف ام ارتاح لنسيانها؟.

فقط. . الذي حدث. . . هو أن آخر مرة رأيت فيها سامية كانت عندنا في البيت. . . جاءت لتعود أمي المريضة، وكنت ذاهبة لشراء بعض الاشياء فخرجت وتركتها مع أمي، ومن ساعتها. . . لم أرها. . . وإلى الابد.

باختصار. . . ماتت سامية في حادث مفاجيء على الطريق الزراعي وهي عائدة الى امها من المدرسة.

ـ ١٠ ـ

أتعرفون جنازة الغربان؟ سأحكي لكم عنها، عندما يموت غراب. . . تتجمع الغربان فجأة وتقيم مأتماً وجنازة لدفنه، ومثلما لا يدري أحد. . . من أين تأتي تلك الاعداد الكبيرة منها، وكيف تتجمع على وجه السرعة تجمع أقارب سامية وأهلها، حتى ملأوا المنزل عن آخره.

طوال علاقتي بسامية لم أر لها أقارب على الاطلاق، ولا حتى في الاعياد، ولم تكن تحادثني الا عن امها ولا اظنها اثارت ذكرى ولدها المتوفي مرة امامي، وعندما عرفت خبر وفاتها وذهبت الى منزلها، نصف سائرة ونصف طائرة، بين مصدقة ومكذبة، في حالة تعقل، وأيضاً جنون، كنت حتى تلك اللحظة. . . حتى لحظة رؤيتي لخالتي أم سامية، كمن ألقى به من برج مرتفع ولم يرتطم بالارض بعد، وعندما رأيتها. . . آه عندما رأيتها. . . جالسة على الكنبة تحت النافذة بلا إبرة في يدها ولا خيط، بلا دموع على خديها. . صرخت. . . زعقت. . . خبطت على رأسي، ولطمت خدي، ودفنت وجهي في حاشية ثوبها ورحت اعضها، شعرت بأن طاقة الألم الهائلة بداخلي تمنع الهواء عن صدري. . . لم اقو على الكلام وقد تخشب لساني في موضعه، وكنت ارفع رأسي بين الحين والحين، أنظر اليها،

علها تقول او تفعل شيئاً، لكنها كانت كما هي بالنظرات الاولى نفسها التي طالعتني بها، يوم رأيتها لاول مرة، والتي تمسحني حتى تستقر في المقلتين، ومنبت الشعر الفضي عند الجبهة وسبط لجة السواد الكبيرة. فقط لمحت كفها تتصلب متشبثة بمسند الكنبة القديم، وسرسوبا من الماء الدافىء يتسرب من تحت جلبابها الاسود على الجزء العاري من ساقيها، ويصب في جوربها الاسود القصير، تسمرت على وضعي... فتحت عيني وفمي عن آخرهم، وتلاحقت أمامي في سرعة صورتها على الكنبة، والنساء الغريبات النائحات من حولها، والمنضدة المربعة القديمة، التي كنا نأكل عليها ثلاثتنا، مستقرة في الركن، ورجل لا اعرفه يرتدي جلبابا طويلاً يقف وقد أسند نفسه للباب، وغبت عن الوجود.

— ١١ —

أن تموت سامية.. هذا ما يشعرني بالخجل والعار!!.

كنت أظن انني التي يجب ان تموت... شعوري نحوها كان دائماً انها افضل مني... بالمقياس العام الذي يحكم به الناس بيننا، كنت افوز انا.. الاجمل والاغنى... وكثيرا ما كانت امي تدهش من تعلقي بها... كنت أرى كل الاشياء عندها افضل... حتى بيتهم الصغير الفقير... وحتى الملابس التي كنا نشتريها سويا... بالذوق والالوان نفسها... كنت اراها عليها اجمل وأرق.

وكنت أشعر انها ظريفة وجذابة، وأحاول ان اقلد اسلوبها في الكلام، وحركات يديها وتعبيرات وجهها، حتى ان اخي الاكبر لفت نظري لذلك.

وعندما كنا نخرج سويا، رغم اختلاف الشبه الواضح بيننا في الملامح والتكوين الجسدي، كان كثير من الناس يظنون اننا شقيقتان.

بصراحة.. بعد ذلك اليوم... يوم موتها... لم احتمل مواجهة خالتي

ام سامية. . كنت اعتبر نفسي مسؤولة امامها عن موت ابنتها وأنني قد خدعتها. . . كان ذلك شعوري الدائم الذي تكون في داخلي منذ أن عرفتها. . أجل فعندما كانت تحصل على درجات ضعيفة في المدرسة أو تفسد شيئا في بيتها او تتأخر في المساء. . . كنت اشعر بالخجل والعار عندما اواجه أمها، ولقد طفح هذا الشعور عندي الآن الى الحد الذي يجعلني لا اقوى على مواجهتها على الاطلاق. . . ولم اذهب اليها منذ ذلك اليوم ولا مرة واحدة.

ـ ١٢ ـ

مر شهر على وفاة سامية. . وأنا لم ار امها بعد ذلك مرة واحدة. اليوم ايقظتني امي مبكرة قبل موعدي. . وبين الصحو والحلم سمعتها تقول لي بأن ام سامية تنتظر في الخارج، وهي ترغب في توديعي قبل سفرها.

كمن القي عليه برميل من الماء البارد. . . انتفضت حافية القدمين اعدو خارجة اليها غير مصدقة.

القيت بنفسي عليها. . أخذتني في احضانها وهي تكفكف دموعي بكفها دون ان يرتعش هدب واحد من اهدابها.

ـ ١٣ ـ

أصريت على ان اذهب معها الى المحطة استقر الرأي ان تعود الى بلدتها، وسط اقاربها، لتموت فيها، باعت اثاثها وأوصت جيرانها خيرا ببوسي.

سارت بجانبي تحمل على جبينها منبت الشعر الفضي. وفي يدها حقيبة

جلدية صغيرة، كل ما أخذته معها الى البلد. لم نتحادث طوال الطريق - لم احاول انا ولم تحاول هي، رغم الزحام والضجيج لم يكن منا غير الصمت، ومن حين لآخر كانت ترفع يدها وتحكم وضع طرحتها على رأسها، وتعود لتنظر الى الطريق من نافذة السيارة التي حملتنا الى المحطة.. كما كانت تنظر من جلستها على الكنبة عبر النافذة... وعندما توقفت السيارة في فناء المحطة الخارجي... أمسكت بيدي فجأة قبل ان تنزل وظلت قابضة عليها فترة من الزمن.. تصلبت لم اقو على الحركة ولم تسعفني الدموع.

وعندما أطل وجه رجل من الخارج الى داخل العربة سائلا السائق أن يحمله... نزلنا وبخطى متثاقلة ارتفعت أقدامنا وحطت على الارض... كنا في جنازة.. جنازة خاصة جداً.

— ١٤ —

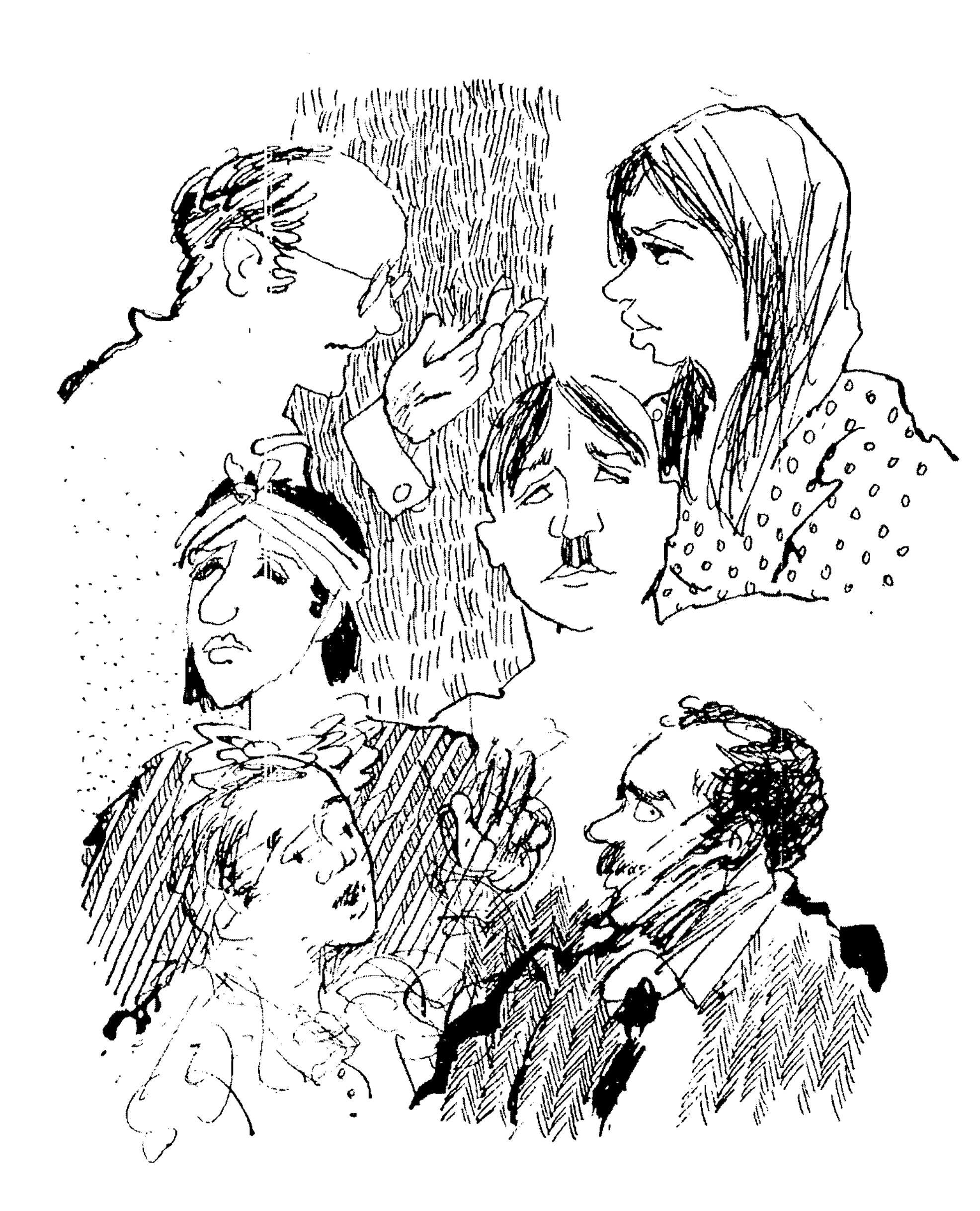
جلست معها قليلا في عربة القطار، حتى يحين رحيله، لم تتلاق نظراتنا أبداً حلقت نظراتنا صوب الافق.. حيث لا شيء، فكرت ان اقول لها شيئاً، ولكني لم اجد ما يقال.

اوشك القطار على السفر، نزلت ووقفت على الرصيف قرب مكانها، اسفل النافذة. بدأ القطار يتحرك احكمت وضع طرحتها حول رأسها، ولم يظهر منها الا المنبت الفضي نفسه.

وقفت في مكاني.. أرغب بالبكاء.. بالصراخ.. بأن اجمع العابرين واستوقفهم، وأحتمي بهم.. بأن اجري خلف القطار، وأمنعها من الذهاب، ولكن فجأة... أقول فجأة، باغتتني، ورفعت يدها بالتحية، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة غريبة، بدلت ملامحها، وأنا التي احفظها،

كملامح أمي طوال عشر سنوات. خلت انها ليست المرأة التي اعرفها. .
خالتي ام سامية. كانت حركة القطار المتزايدة تشد ساقيّ الى الارض،
حاولت التشبث بالمكان وباللحظة، بالناس العابرين، بالمحطة، وبالساعة
الضخمة، المعلقة في صدر الحائط الكبير. لكني كنت انهار، ويلفني شعور
لا أنساه. . الشعور الذي اخذ يسرقني شيئاً فشيئاً، عندما رحت اعد الرقم
الرابع، بعد حقنة البنج، يوم أجريت جراحة اللوزتين.





أصل الحكاية ثمّة

قال التاجر ـ يقول منصور «البوهيجي» دوما لزبائنه مفتتحا الحكاية ـ : «ودين النبي يا صاحبي انك خرفت وعقلك طار»، بعد ان سمع حكاية سندس من صاحبه الفران الذي قال انها طيرت النوم من عينيه، حتى لحظة صياح الديك في الفجر، وانبسط وتكيف من الكلام، وطقطق رقبته وهو ينظر الي لاقول شيئاً، لكني ناولته الجزمة، وانا ساكت، بعد ما لمعتها، ولما هم بالوقوف، بعد ان لبسها، وكان غلب الفران، وانتها، عشرتين طاولة، فكان فرحا جدا، خبط على كتف صاحبه، الذي كان متضايقا من الغلب، وعدم تصديق العالم لكلامه، بأن ما قاله حصل بحق وحقيق، وانه لا يكذب، ولا يفتري على خلق الله، ثم انه حلف مرة ثانية بتربة ابيه الطاهرة، وثالثة بالطلاق ثلاثة من ام عياله، ان ما قاله هو الصدق بعينه، وانه سمع من سندس بحلمة اذنه التي امسكها عندئذ، ما قاله للتو واللحظة، كلمة، كلمة، ودون زيادة ونقصان، فمن احب فليصدق، ومن لم يحب فهو حر، او يروح في ستين داهية، ثم طلب واحد قهوة سادة ليشربها ويريح نافوخه من الوجع.

عند ذلك الحد سهم التاجر قليلا، ووقف في مطرحه يتفكر في كلام صاحبه، وهو ينظر له باستغراب شديد، وبقي على حاله هذا مدة من

الوقت، لعبت اصابعه بشاربه، وواحد منها نكش انفه، ثم تنهد تنهيدة عظيمة، بعد ان نظر الي ناحيتي دون ان يعلق على الكلام بحرف واحد، او يعرف الصدق من الكذب . . ومشى .

منصور البوهيجي، الذي يحب كثيرا مثل هذا النوع من الحكايات، وكذا كثرة الكلام، والتقليب في سيرة الخلق، مال لتصديق رواية الفران، خصوصا لانه كثيرا ما شاف امرأة النجار، تجلس في دكان القماش كل يوم والثاني، تأخذ وتعطي في الكلام مع صاحبه وهي تسبل جفنيها، وترفع ذراعيها، لتزيح الشعر الناعم المتساقط على جبينها، حتى يبان لحم ابطها، مما يجعل منصورا نفسه ترتخي اعصابه، وتسيب مفاصله، الى درجة ان تقع من يده فرشاة التلميع غصبا عنه، بينما صاحب الدكان، يطلب لها المشاريب الباردة والساخنة من المقهى، ولا يرفع عينيه عنها، لذلك فالحكاية شعشعت في دماغه وذهب لما الدنيا عتمت في مساء اليوم ذاته للخرابة ليتقصى الخبر بنفسه، اما التاجر فقد الهته البضاعة والفلوس، وامور الدنيا، بعض الوقت عن حكاية الفران العجيبة.

ذلك ما كان من امره، حتى لحظة مروره على الخرابة، بعد ثلاثة ايام بلياليها من حديث الفران له على المقهى، الذي منعه من مفاتحته، برغبته في الدخول مرة ثانية على بنت بنوت، كما منعه من ذلك حضور منصور البوهيجي، الذي جعل وقت الكلام غير وقته. التاجر في الخرابة، انذاك، كان يفكر في الموضوع نفسه، تأخذه وتجيبه الافكار، فهو يرغب في الكف عن الهلس، والمشي في البطال والحرام، وبعثرة الفلوس، كل ليلة والثانية على بنات الحظ، ثم ان البنت البنوت التي ينوي عليها، ربما ولدت له الولد الذي تتمناه نفسه، ليحفظ له اسمه، على ظهر الدنيا، ويبقي فيها بعضا من رائحته بين الناس، لكنه قبل كل شيء، سيفاتح امرأته ام البنات بالأمر، حيث لن تكون لها حجة في الحط من عزمه، لانه ستر بناتها، وزوجهن جميعا، كما صبر عليها السنين الطوال دون ان ترزق بالبنين،

الذين يخاف التاجر ان يودع الدنيا دون ان تتكحل عيناه برؤية واحد منهم يخرج من صلبه. التاجر، لما حصره البول، في الخرابة، وكان قد فرغ من تقليب الامر على كل وجه، واستقر مع نفسه على ما وصل اليه، فك ازرار سرواله، ليفك ضيقته، وسار الى عشة سندس، ليتدارى بحائطها ويقضي حاجته، عند ذلك تذكر كلام الفران عنها، فابتسم لانه سمع شخيرها يختلط بصوت رشاش بوله المندفع الى الارض، ولما استرخت عضلاته المتوترة، تفل راضيا، وسب سافل سافلين جدود الفران، الذي لا يكف عن الفشر والكذب، وابتداع الخرافات، ونوى ان يفضحه امام الخلق، عندما يلاقيه، في المقهى، عند الصباح، ان كان له عمر باذن الله.

كانت الدنيا شتاء، والريح تطيح بفروع النخلة الوحيدة الباقية في الخرابة، هكذا كان يحكي البوهيجي، قبل ان يسترسل فيما كان من امر سندس مع التاجر والفران والموظف والنجار وبقية اهل الحارة، وما جرى من نوادر عجيبة بعد ذلك، وهي النوادر التي كان يحلو له حكايتها لزبائنه، كلما سمح له الوقت بذلك فيقول: كاد البول ان يسيب بين فخذي التاجر مرة ثانية لما سمع شخيرها يتلون، فجأة، بغمغمات غريبة، سرعان ما اكتشف انها كلام بني آدم، «كلام مثلما كلامي وكلامك يا سيد» يقول ـ البوهيجي مؤكدا ـ التاجر احتار وخاف وتمنى لو استطاع لاطلق ساقيه للريح، لكن قلبه كان قد طب منه عند رجليه، فتسمر في مكانه، حتى سمع كلام سندس كله، ومن ساعتها شاب شعر رأسه، وبقي كتانة بيضاء.

ثم انه جرجر نفسه بالعافية، وسار سير من مسه مس، لا يعرف اوله من اخره، ولارأسه من رجليه، حتى وصل عمارته، التي يسكن فيها.

منصور البوهيجي لم يحك ـ لانه لم يعرف ابدا ـ ان زوجة التاجر ام البنات، لاحظت صباح هذه الليلة، والليالي التالية لها، ن رجلها صار عابسا، مهموما، لا يلاطفها، او يقرصها في فخذها كعادته، عندما تنحني

وتضع المركوب في قدميه، قبل نزوله من السرير عند كل صباح، كما انه لم يعد يمسّ طعامه الا مسّا خفيفا، وقبل ان تحكي ذلك لجاراتها، كانت قد طلبت من ربّها الستر، وجعل العواقب سليمة، لأنها لما سألت زوجها عن سبب كربته، تنهد وفرك يديه ببعضهما دون ان يجيبها، الجواب الشافي لحيرتها، وهي التي كانت تتوجس المكروب بسبب ان جفن عينها ظل يرّف، قبل ذلك بأيام، رفات كثيرة جعلتها تقول لروحها في قلق اللهم اجعله خيراً يارب.

«العواقب، في الحارة، لم تأت، بعد ذلك، سليمة ابدا»، هكذا كان يحكي البوهيجي للزبائن، بينما يمرر فرشاته تمريرات سريعة على جزمهم، لتلمع وتبرق كالبللور. «فالتاجر رغم انه دفن سره في قلبه وكفأ على الخبر ماعونا، الا ان صدره كان قد توغر ضد اخيه الخائن الذي يشاركه تجارته ويظن انه ابن امه وابيه، الذي يعيش معه على الحلوة والمرة، ويأتمنه على ماله وتجارته، لذلك قام التاجر بطرد كاتب الحسابات الذي عمل عنده عشر سنين قبل ذلك، وامسك حساباته بنفسه، لانه وكما يقول المثل ـ يقول البوهيجي بجد ـ لا يخاف على المال الا اصحابه، والتاجر، من ساعتها، فتح عينيه، عن اخرهما، على كل قرش، داخل وخارج، من تجارته الكبيرة في السوق».

«اما الولد كفراوي ـ يقول منصور البوهيجي ايضا ـ فقد كان يعمل صبيا عند الفران، ويبيت ولا مؤاخذه ـ مع كلبه الاسود، كل ليلة، في حجرة الكناسة، التي يجمعها، بأمر الفران، ليبيعها، حيث تعجنها نسوان الحارة، لتطعم بها الفراخ والحيوان. الولد كفراوي، بكى وولول كالحريم، كما لطم وشق هدومه، بعد ان شاف كلبه المحبوب مرميا، رمية الموت، بجانب مخزن الكناسة، وقد تيقن كفراوي ان موتة الكلب كانت بفعل فاعل، سمه قصدا»، منصور البوهيجي كان يضحك كثيرا عند هذا الحد من الحكاية، ويسحب نفسا طويلا من سيجارته، ينفثه بارتياح، بينما يغمز

بعينه للزبون، ويضيف مقسما، «والله يا حضرة، سمعتها بكلمة اذني، من سندس، وهي تقولها، سمعتها، بالكلمة، والحرف الواحد.. كفراوي كان يفعل المفعول مع الكلب الاسود، الذي كان يسميه جميل، وانا صدقت، لاني كنت اشوفه، كثيرا ما، يحرم نفسه، من الحلوة والمرة، وهو الفقير، ويشتري للبهيمة اللحم الضاني، بالشيء الفلاني. والا، لماذا بالله عليك يحرم روحه، ويعطي للكلب. لا بدّ ان في الامر «إنّ»، اعقلها معي يا سيد».

ثم يؤكد منصور، بعد ذلك، ان كفراوي، الذي منعه التاجر من احضار الخبز لامرأته، عند كل صباح، «لانه نجس نجاسة الكلاب ذاتها، ومنحرف»، كاد ان يجن فعلا، بعدما صار مكتئبا، حزينا، طوال الوقت، كمن مات له ابن او اخ او أب او عزيز لديه، بل واصبح لا يتكلم مع الناس، الا، في الشديد القوي، عندما يلزم الامر.

«ثم ان الحارة كلها على بعضها احوالها تغيرت - يقول منصور - والجفاء بين اهلها اخذ في الزيادة، والناس حصلت بينها الوحشة، ولم يعودوا يأتمنون بعضهم البعض، او يتحادثون فيما بينهم كما يجب ان يكون حديث الصاحب للصاحب، حتى النسوان. احترزن في الكلام، بسبب الخوف من الرط والعجن وتقليب الحكايات، والسبب، في كل ذلك، حكايات سندس العجيبة، فالجميع كانوا يتسللون، الى الخرابة سرا، عندما يأتي الليل، ويتسمعون كلامها، ويقال ان حسين موظف الصحة قرر الرحيل، الى مكان اخر، لانه اكتشف ان القهوجي كان مختبئا، في الناحية الثانية، بجوار العشة، عندما حكت سندس عن بيعه لحقن الكيف، التي يسرقها من مخازن الحكومة، ويحقن بها الخلق، مقابل معلوم من الفلوس، وان امرأة التاجر، نفسها، كانت تشك، منذ زمن، في اسباب تغير احوال زوجة الموظف وعياله، الذين بدت عليهم امارات النعمة فجأة، وصار عندهم التلفزيون الملون، والصالون المذهب، بينما راتبه، شهريا، لا يزيد عن

مصروف التاجر كل يوم على المشاريب والدخان.

اما بنت الموظف نفسها، فسندس قالت عنها انها تغار من زوجة النجار، وتحقد عليها، لأن البنت قبيحة ولاتعجب الجدعان، حتى لو صبغت شعرها بالأصفر، ولبست القصير المغري كامرأة النجار، لأنه شتان بين اللحم الأبيض، واللحم الأسود، والعود الطري، والبدن الجاف، ثم انها تفتعل الأدب والاحتشام، وتكثر الحديث عن العفاف، وطهارة الذيل، وربما لو أشار اليها كلب، في الطريق، لتبعته من فورها وعلى رؤوس الأشهاد.

اما ما يقوله منصور البوهيجي من حكايات سندس، قبل ان يختتم هذه الحكايات، بحكاية ما كان من أمر النجار مع امرأته، فهو ما رآه بأم عينه، وما سمعه بأذنيه الاثنتين، من حكايات تخص سندس نفسها.

سندس تشم الرائحة لكنها لا تبالي

«احوال سندس تغيرت، اقول ذلك لأني كنت اعرفها، واشاهدها كثيرا، وهي تشتري الحاجات، من الدكاكين، او تشير للتاجر، في المقهى، بانه مطلوب من جماعته، لأمر هام، في البيت، كانت تتفاهم بالإشارة، وكنت امازحها، واهددها بان امسح بفرشاتي على مركوبها الوسخ، الذي لا تقل وساخته عن وساخة قدميها، فتخبطني - يمسيها بالخير ان كان حية - وتشير باصابعها في اتجاهي، اشارات بذيئة اضحك منها، لعلمي انها اغتاظت وفار دمها.

صحيح انها استمرت في الحصول على لقمتها، كالعادة، من بيت التاجر، نظير تنظيفه والخدمة فيه، كل يوم، كما ان الفران لم يمنع عنها الارغفة الست، التي كان يجريها عليها، كل يوم، وظلت على عادة استحمامها، كل مدة، في بيت الادب بالمقهى، عندما ينصرف الزبائن،

ويوشك القهوجي على الذهاب الى بيته، لكنها اصبحت حديث الحارة والحواري المجاورة طوال الوقت، وقد حاول الكثيرون الكلام معها، لكنها ظلت، كما هي، ساكتة، بكماء لا ترد، ورغم انها شعرت ان احوال العالم، حولها، تغيرت، الا انها لم تبال، ولم تغير سنة حياتها في شيء، منذ ان وقعت عليها عيون الناس، في الحارة منذ مدة، يقول بعضهم انها تزيد على الخمسين سنة، التاجر والفران والموظف كانوا منشغلين، اكثر من غيرهم، بامر سندس. التاجر الحويط قالوا ان حياته كانت مليئة باسرار كثيرة وخطيرة، كانت تعرفها سندس، لذلك قرر تسقيف منور العمارة، ليعد فيه منامة لها، لانه عزم ان يأتي بها، من العشة، ليقفل عليها كل ليلة عندما تنام، فلا يتسلل لموضعها بني آدم ليتصنت. التاجر، في الحقيقة - ولا يعلم ما بالنفوس الا الجبار - كان يشتهي موت سندس، وكان يستطيع ذلك، لو بيت العزم، لكنه كان يعتقد بالجان، ويفكر انها ربما كانت تآخي واحدا منهم، كما ان حكاية المنور انتهت، لأن عامل المجاري، الذي يسكن اسفل العمارة، والذي كان يسد حلق التاجر، المتمني تركه للشقة الصغيرة، التي يستأجرها منه، بين يوم وليلة، كان يسد حلقه بالايجار، عند اول كل شهر، لذلك فقد رفض تسقيف المنور، وهدد بإبلاغ البلدية، لو تم ذلك، لان السقف سيكون غير شرعي وسيسد عن شقته النور والهواء، وكذا باقي شقق الدور السفلي، لذلك فكر التاجر، عوضا من ذلك، في بناء ارض الخرابة، التي يمتلكها، والتي كانت في الاصل موضع سراي كبيرة، يملكها صايغ ارمني، رحل مع امرأته، تاركا سندس، التي كانت تعيش معها، وتخدمها، قبل ان تخدم سكان العمارة وبيت التاجر. الارمني - يقول منصور البوهيجي مضيفا - اتفق مع التاجر، عند البيع، على ان يترك لسندس عشتها، لتعيش فيها، وقام بخصم ثمنها من ثمن السراي، وقد نفذ التاجر الاتفاق فعلا، ليس لأجل سندس المسكينة، ولكن، لأنه كان يعرف ان عشة سندس ستدخل ضمن حدود الشارع الجديد، الذي

تنوي الحكومة تنظيمه، وانه لن يخسر شيئا اذا ما ترك العشة على حالها. التاجر نوى بناء الخرابة، ليجبر سندس على الاقامة في عمارته، لكن لما كان العامل الوسخ ـ كما يقول التاجر ـ يقف عقبة في سبيل ذلك، فقد استقر امره على ان يخلي لها، حجرة الخزين، التي ترص فيها امرأته قدور السمن، واشولة السكر والارز، لتعيش فيها، وليعلم جميع من في الحارة، بعد ذلك، ان التاجر صاحب حسنة، ويده ممدودة بالخير دائما.

الموظف، المشغول بأمر سندس، فضل الرحيل، اما النجار، الذي تظاهر بانه لا يعرف شيئا عن حكايات سندس ـ رغم ان سعيد الفران الذي لا تبل في فمه فوله، نشر الحكاية على قد استطاعته ـ فقد تابع الامر في الخفاء، على نحو لا يلاحظه احد من اهل الحارة، وسمع ان سندس كانت جارية ورثها الارمني، عن امه، منذ كانت طفلة، وقال آخرون انها، في الحقيقة، بنت حرام، وجدها الارمني على باب بستان الدار ايام كان للدور بساتين وذلك عندما كان يتمشى فيه ساعة عصاري.

سندس، ظلت تعود الى عشتها، عند غروب كل شمس، وهي العشة التي لا تزيد مساحتها عن مترين في متر، وتمد نفسها على فرشة قديمة، تبقت عندها من ايام الارمني، مع بعض الاشياء الاخرى، التي كان من بينها علب صفيح فارغة، وقطع فخار مكسورة وتماثيل غريبة الاشكال، كما كانت هناك هدوم قديمة تأخذها سندس من اهالي الحارة، وكانت هناك لمبة جاز ونّاسة تشعلها المسكينة بمجرد دخولها العشة في المساء، وتأخذ في النظر اليها حتى تروح في النوم، «وهذا الكلام ليس من عندي يا سيد» يقول ـ البوهيجي دائما لزبونه ـ «لكني رأيته بعيني عندما راقبتها عدة مرات». «واقول لك صادقا انني لم اكن اعرف فيم تفكر سندس على وجه التحديد، حينما كانت ترقد في فرشتها، محملقة في الوناسة، حتى يغالبها النعاس، فتنام، كما اقول ايضا ان احدا، من اهل الحارة، لم يكن ليعرف ايضا، فيم تفكر هذه المرأة، طوال النهار، لكنها لم تكن معتوهة ابدا، رغم ان

خلقتها ربما اوحت بذلك، فهي كانت تشتغل شغلها كله بشطارة، وكان الجميع يتفاهمون معها بالاشارة، لانها كانت لا تسمع ايضا. والرجال، لم يفكروا في الاقتراب منها، ابدا، لانهم لم يروها امرأة قط، بسبب شكلها الغريب قليلا، ثم ان معظمهم، عندما شبوا في الحارة، وجدوا سندس كبيرة، بالنسبة لهم، اما النسوان فكن يتندرن بشكلها، وعندما يسخرن من احداهن يشبهونها بسندس، اما زوجة تاجر القماش، التي كان نصيبها من الجمال قليلاً، فكانت تنهر النسوة، عند ذلك الكلام، وتقول لهن: انها خلقة ربنا، ولا يصح ما تقلنه ابدا.

يوم الدينونة في الحارة

«قلنا ان الجفاء، بين اهل الحارة، قد زاد، والرجال لم يعد يطيق بعضهم بعضا، ورغم ان كلب كفراوي قتل، والموظف ترك الحارة، ورحل، مع اهله، والتاجر فصل تجارته، في النهاية، عن تجارة اخيه، الا ان الحكاية لم تقف عند هذا الحد، ففي يوم من الايام وجدت امرأة النجار مقتولة، وقيل ان زوجها قتلها لما يتقن من امرها مع تاجر القماش، وقبلها كانت الحكومة قد اوقفت فرن الفران، وشمعت بابه بالشمع الاحمر، بسبب تسريبه دقيق التموين، خارج الفرن، اما سندس نفسها، صاحبة الحكايات العجيبة والتي حكت حكاية التاجر مع اخيه، وزوجة النجار مع تاجر القماش، وبيع الموظف للمسروق الممنوع، وصبي الفران مع كلبه الاسود، وحكايات اخرى كثيرة، ربما سمحت الايام بقصها - يقول البوهيجي - فقد اختفت من عشتها فجأة، دون ان يعثر احد على اثر لها، البعض قال ان التاجر قتلها، اخرون قالوا انها طفشت، بعد حادثة النجار، بعض الناس نبشوا عشتها، نسوان الحارة اخذن بعض قطع الفخار، التي كانت تكومها، ليستخدمنها في أمور السحر والجان، ورجال

حفروا في ارض العشة سرا، ظنا منهم انه لا بد وان يكون بها كنز مخبوء، وحتى هذه الساعة لا يعرف احد شيئا عن سندس، التي تركت كل حاجة، من حاجاتها، بمطرحها ـ يقول منصور البوهيجي ، الذي يثبت نظراته على وجه زبونه المستمع فترة ويضيف بعد صمت ـ ما عدا لمبة الجاز السهارة، التي اختفت ايضا.

الفهرست

رقم الايداع فى دار الكتب
٨٦ / ١٧٢٤

